

حسين فرج زين الدين

# مع الحيات

٣٦

[اقرأ]

تصدرها دار المعارف  
بمعاونة الدكتور طه حسين بك واطون انجيليك  
وعباس محمود اليقاز وفؤاد صروف

٣٦ — نوفمبر سنة ١٩٤٥



جميع الحقوق محفوظة  
لدار المعارف

## لدغة

في قرية من قرى الصعيد المتواضعة نشأ رفاعه ودرج على ما درج عليه أهل الريف في جو تشيع فيه أراحيف المشعوذين بالجن والحيات. فكان يسمع طرائف وأحاديث لا تخلو من الخرافة والمبالغة عن الثعابين وحياتها والفاعيين وعلاقتهم بها . وكانت هذه القصص والأراجيف تثير الخوف في نفسه أما الثعابين لذاتها فلم تكن تستفزها لأن صغار الأطفال كصغار القردة لا تدرك من أمرها قليلاً ولا كثيراً وقد ترى الثعابين زاحفة فلا تخشى أن تقترب منها وتلمسها وتلعب بها . وعلقت هذه القصص بذابكرته فلما بعث به نوبه إلى المدرسة واتسعت مداركه رأى في دراسة هذه الزواحف موضوعاً طريفاً ونوعاً جديداً من البحث وراد أن يرضى في نفسه غريزة حب الاستطلاع ويعرف ما خفي عليه من أمر هذه المخلوقات الغريبة . فعكف على دراستها وعرف الكثير من خصائصها ومواطنها .

وكان فيما علم أن « العمارنة »<sup>(١)</sup> أغنى مناطق مصر بالحيات وأنواعها فدفعته الرغبة إلى جولة في آثار تلك البقعة الخالدة التي كانت تسمى « أخت أتون » والتي كانت يوما ما مقر الملك الصالح « أخناتون » والتي أشرقت منها لأول مرة في تاريخ الأديان شمس التوحيد وتلألأ نور ذلك الدين الجديد الذي لم يكن للعالم عهد به قبل أن يهتدى إليه أخناتون .

رحل رفاعة ومعه عمه حسان وابنة عمه الحسنة « وردة » التي كانت على شيء غير قليل من الثقافة وسعة الإدراك وهبطوا ذلك الوادي بعد رحلة شاقة وضربوا خيامهم فوق مرتفع من الأرض يطل على النيل ولكن الشوق المتأجج في نفس الفتى إلى شهود الآثار أنساه وعشه السفر وطفق يبحر خلال تلك الأطلال وحفز نشاط الشباب ابنة عمه إلى مرافقته ، أما عمه الشيخ فقد أثر الراحة في الخيام .

---

(١) العمارنة مدينة تقع على الضفة الشرقية للنيل وكانت عاصمة المملكة المصرية بعد طيبة وتنسب اسمها الحالي إلى قبيلة بني عمران أما « اسمها القديم فهو ( أخت أتون ) أى سماء الإله أتون ومؤسس هذه المدينة الملك أخناتون أى المتهج بآتون وآتون هذا كان يرمز إليه بعرض الشمس من دليته منه أشعه توزعها أيدي بشرية .

سار الفتیان بین خرائب مقفرة ومناور مظلمة يرتادان السهل  
والوعر من هضبة إلى تل ومن واحة صغيرة إلى صحراء مترامية .  
لا يحسان نصباً ولا يذكران تبعاً ورفاعة يشرح لرفيقتة سر تلك  
الآثار ويحدثها عن عمارها من الزواحف وأنها أصبحت مسارح  
حيات بعد أن كانت مناسك عبادة وميادين نحر .

وبعدلأى وقفا على واحة صغيرة وسط هذه البقعة الصحراوية  
ورأيا في عشبها الندى مهداً ليناً فألقيا بجسديهما عليه . وخلعت  
الفتاة عنها معطفها فبان عن قد أهيف لدن وساعد ناعم بض  
وامتزج هذا الجمال الفاتن بجمال الطبيعة الساحرة فأثار الشعور  
بالجمال في نفس رفاعة عاطفة كادت تغلبه على أمره وهم بأن يطبع  
قبلة على ساعد وردة لولا أن رأى منها غضبة ونفرة فتراجع حيران  
أسفاً على ما بدر منه وصمت فترة استرجع فيها نفسه ثم اعتذر لوردة  
عن هفوته وراح يزيل عنها روعها بمحدث عذب مسترسل عن  
موضوع الرحلة وتاريخ الأرض التي نزلوا بها فقال: إنها كانت في  
عهد الغابر فسيحة الأرجاء عامرة بالهياكل الدينية والقصور  
والبساتين وقد وصفها أحد أمراء ذلك العهد بقوله .

(أخت أتون) بلدة جميلة هي سيدة المدن في بهاء الحفلات

وافرة الثراء تهدي إلى العبود آتون في وسطها الهدايا إذا جال  
 البصر في أنحائها عجل الفرح إلى القلب، ولم لا يكون ذلك وهي مدينة  
 رائعة زاهرة بخيل لرائها أنها جنة غناء عامرة بالناس، إذا أشرق  
 عليها (آتون) نشر أشعته فتحتضن ابنه المحبوب الأزلي سليل  
 (آتون) الذي وقف الأقاليم على من أجلسه على العرش وأرجع  
 الأرض إلى ربه .

سكت رفاهه يستجمع أفكاره ثم استطرّد يقول : من يدري  
 نعل هذه الربوع ؟ تشهد مهرجاناً كالذي شهدته يوم أن هبت  
 تستقبل موكب أخذتون وهو راكب عجلة ومعه كرماته الأربع  
 وكبار رجال دولته فقبائلهم انقوى عند معبد آتون بهتاف عظيم  
 مرحبين مهللين ثم امتلاً المذبح العالي بآتمرايين الغالية .

وقد اشترك جلاله الملك في الاحتفال وأنشدت زوجته أنشودة  
 السلام إلى لمعبود آتون بصوت رحيم وهي قابضة بيديها الجميلتين  
 على آتين موسيقيتين وقد انبعثت من الهياكل نغمت حلوة تسجية  
 تردد أنشودة الآله (آتون)

( ما أكثر مخلوقاتك المتنوعة -- منها سر مكفون -- أيها  
 الآلهة لأحد الذي لا شريك له في ذلك .

إشراقك وضاح في أفق السماء — يا أتون يا حى يا مبدىء  
الحياة ، إذا تعاليت في الأفق الشرقى من السماء أفضت على الأرض  
جمالاً ؛ ذلك بأنك جميل عظيم منير فى السموات العاليسطع نورك  
على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك .

أنت ( أتون ) ، أنت الذى ملكهم وجمعهم على محبتك ،  
أنت بعيد عن الأرض لكنك قريب منها بأشعتك . أنت متعال  
لكن أثارك تتجلى فى وضوح النهار )

سكنت الفتاة إلى هذا الحديث الشائق الخشع وهذا روعاً  
وهت أن تبتر فتاها بسؤال ولكن رفاة تابع حديثه قائلاً : من  
يدرى ماذا كانت تخلف تلك المدينة الزاهرة لو لم تعصف بها  
النوب ! إن عظمتها فلم تمهلها أكثر من خمسين عاماً ثم أزانتها  
صرير الليالى والجدود العواثر فأنت على أهلها وأحالت ديارهم  
بلاقع خاوية ينبع فيها البوء وتسعى بين جنباتها الحيات فأصبحت  
تضيق بها على سمعتها فنما ما اندس فى الرمل أو اختفى فى المغاور  
ومنها ما تسلق الأشجار أو قفز فى الهواء إلى غير ذلك من  
شئى الأنواع .

وما إن توقف رفاة عن الحديث حتى عادت اتمتة تسنه

لقد أفضت في الحديث عن تاريخ تلك البقعة وما فيها من عظمة وجلال ، وها أنت ترى ما آلت إليه فهل لك أن تحدثني عن ساكنيها الآن من الثعابين والحيات ولا أخالك إلا شغوفاً بها ؟ فراح من فوره يشرح لها أنواع الزواحف في هذه البقعة وطرق معيشتها ، وكنها لم تمهل ليم حديثه بل قاطعته في رفق ودلال قائلة . أعفد من هذا الشرح الآن وحدثني هل تتحاب الثعابين كما يتحاب غيرها من المخلوقات .

وهل لهذه العاطفة من أثر فيما تعلم عندها . فأجاب : أما عن ذلك فلم يهتدي إليّ علمي ولم أشهده في تجاربي ولكني محدثك عن حادث واقع سمعته حياً وغراماً أوفسه ما تشائين من الأسماء وقع هذا الحادث لأحد القرويين في ضاحية من ضواحي مدينة « الكاب » فقد قتل ثعباناً ساماً وحمله إلى قريته واصطحب معه صديقاً إلى البيت وقال له « إنا سنمزح مع زوجتي مزاحاً قد لا يرضيها ولكننا سنضحك منه كثيراً فأسأع هذه الحية الميتة في قبعتي وأدعها في حجرة نومي وأطلب إليها إحضار البقعة بينما نشرب نحن شيئاً من النبيذ .

ودخل الرجلان البيت ودبر الزوج لزوجته ما أراد وجلس مع



صاحبه إلى مائدة الشراب يحترسان الخمر ثم نادى زوجته : **المرءية**  
 بقبعتي من الخدع . . فذهبت حيث أمرها ولكنها لم تعد وطالت  
 غيبتها وطال انتظار الصاحبين حدوث المفاجأة وسماع صرخة  
 الفرع فما ظفروا بشيء . ولما استبطأ المرأة ساورت الزوج الوسوس  
 فهم من فوره إلى الخدع ولم يكذب ليج بابها حتى كاد يصق لرؤية  
 زوجته جثة هامدة ووجد بجانبها وبجانب الحية الميتة ثعباناً لم يشك  
 في أنه هو الذي لدغها . وذهبت المرأة المسكينة ضحية ذلك المزاح  
 الثقيل . أما الثعبان فظاهر أنه أقتنى أثر القروى الذي قتل أثناء  
 ونفذ إلى الخدع من كوة صغيرة لينتقم لآثائه أو قولى خبيثته .

دعت عين الفتاة لهول ما سمعت ووجعت قليلاً ثم عادت إلى  
 نفسها وسأت رفاة قائلة هل لك أن تشرح لى أعراض التسمم  
 بالحيات وهل سمها قاتل إلى هذا الحد كما حدث للقروية التمسمة  
 فأجابها الفتى : إن من الناس من يقضى عليه السم فى ساعات  
 قليلة ومنهم من يمتد به الأجل بضعة أسابيع ومن الناس من يقع  
 فى غيبوبة لا يفيق منها أبداً ومنهم من يموت وهو يعنى آلاماً  
 مبرحة وقد ينجو الكثير منهم تبعاً لقوة مقاومة الكامنة فى أجسامهم .  
 وهأنذا أتلو عليك مذكرات طبيب اسمه ( هينزل ) وهو أحد

العلماء المجاهدين الذين يضحون بأنفسهم في سبيل العلم ؛ فقد أحضر هذا الرجل أفعى شرسة كبيرة الحجم مضى عليها ثلاثة أيام لم تنفث سماً فأذننا من إبهام يده اليمنى وتركها تعضه وفي هذه المذكرات المحتعة يقول الطبيب :

عظمتي اذفنى فى الساعة الأولى بعد الظهر فأحدثت جروحاً عميقة مؤلمة . واهتزت جميع أعضاء جسمى رغم تظاهرى بالثبات ثم أخذ الأ لم يسرى فى إبهامى وانتقل إلى الكف ثم إلى الذراع وامتد حتى الأبط فأسرعت بربط الإبهام وجعلت أمتص السم من موضع اللدغة ولكننى لم أستعمل المشروط ولم أعقم الجرح لأننى لا أومن كثيراً بهذه الاحتيطات وشعرت عند الإصابة بتخدير فى أعضائى وأصابنى دوار فى رأسى وإغماء قصير أفقت منه بعد قليل . وفى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم الأول عاودنى الإغماء وفى خلال هذه الفترة ظهر مكان اللدغة لون أزرق وتورم الإبهام وآلمنى وأخذت نوبات الإغماء تتكرر ولكن لا تمكث إلا بضع دقائق نظراً لمقاومتى إياها بقوة الإرادة .

وبين الساعة الثانية والثالثة عم الورم الذراع كله وصعب على تحريكه وأصبحت أسمع الأصوات ضعيفة وتعذر على فهمها وحاولت

في جهد أن أسممها ولكن شغلتنى الآلام التى بدأت تظهر فى بطنى وقد أنتفخ .

وبعد الساعة الثالثة تقايات لأول مرة وأصابنى إسهال وتشنجات متقطعة فى أجزاء صغيرة من أعضاء البطن وأعضاء أخرى من الجسم ، واستمرت التشنجات فى المثانة وقعدت قواى لدرجة ثقل معها سمعى وشعرت بمطش شديد وصرت فى أعضاء جسمى موجة من البرودة الشديدة واحتقن الذراع واشتد ضغط البطن على أعضاء التنفس . وقد أخبرنى من كان معى أن منظرى قد تغير وتنكر وأصبح من الصعب التعرف على شخصى وقيل لى إننى كثيراً ما كنت أهذى ولكنى كنت مالكا لحوامى بين فترات الإغماء وكثيراً ما حاولت أن أقول شيئاً فتخوننى قواى .

وفى الساعة السابعة (أى بعد مضى ست ساعات من الحادث) زالت أعراض التشنج وألقى والإسهال وكذلك آلام البطن وتناولت جرعة من مستحلب (الأفيون) فقضيت ليلة هادئة غير أن آلام البطن عاودتنى فضايقنى ذلك قليلا .

وفى الساعة السابعة من صباح اليوم الثانى تضاغت أورام الذراع حتى الأبط واستحال لون العضة أزرق قائماً وظهرت حولها

حلقة حمراء على امتداد الجانب الخلفى الذراع وامتد الاحتقان إلى الصدر وانتقل تدريجاً إلى الفخذ وارتفعت درجة الحرارة شيئاً قليلاً في الأعضاء المتورمة وتصبب العرق فانخفضت درجة الحرارة وكدت أتمتع براحة تامة لولا ما عانيت من متاعب البول وضعف النبض ولكنى لم أفقد شهيتى للطعام . وعند الظهر زال الدوار بعد أن تناوت شراباً ساخناً وزالت كذلك نوبات الإغماء ولكن آلام الذراع عادت واشتدت وزاد شعورى بالبرد وضعف النبض كثيراً غير أن شهيتى للطعام ظلت جيدة وقل شعورى بالعطش وخفت وطأة آلام البول .

وفي اليوم الثالث ضعفت حدة آلام الكتف والفخذ وجدار البطن واختفت تماماً متاعب البول ولكن الإعياء وجميع الأعراض الأخرى ظلت على شدتها .

وفي اليوم العاشر تلاشت جميع أورام الصدر وزالت جميع الأورام الأخرى في اليوم الثامن عشر . ويختتم الطبيب تقريره القيم بعد ستة أسابيع من تاريخ اللدغة بقوله : لقد خرجت من هذه التجربة القاسية بهزال شديد ولون شاحب لم أعف منها حتى

اليوم ، ولازمتني كذلك رعدة تتمشى في مفاصلى وظل ذراعى ضعيفاً لم يتم برؤه وأصر مكان اللدغة .

وما أن أتى رفاة على آخر هذه المذكرات حتى صاحت وردة صيحة مختنقة وأشارت إلى ساعدها الأيمن إشارة هلع واضطراب آه لقد عضنى ثعبان . . فقام رفاعه يفتش عن الثعبان الآثم ويهرول من هنا إلى هنا وعيناه عالقتان بالأرض يتحسس آثار الأفعوان ثم صاح : لقد وجدتها . هذه آثاره وأكبر الظن أنه ثعبان سام فدعيتنى أوسع قليلا من مكان اللدغة ثم امتص السم من ساعدك ولا خوف على من سريان السم فى دى قمى سليم من الجروح . . أسرعى . فليس فى الوقت فسحة تزيد على نصف الساعة أخشى بعدها من طغيان السم على جسمك . . هيا . . فبعد قليل سيشتد ألمك ويضيق نفسك . . عجلى بربك . . ثم ضم يده إلى جيبه فأخرج ساعته وأخذ يعد الدقائق والثواني منذراً تارة ومتوسلاً أخرى فلم تأبه لنذره ولم تستجب لتوسلاته قالت : إني أوتر الموت وأرحب به على أن أدعك تمتص السم فتكون أنت الضحية . . ثم جعلت تئن وتأوه . .

واسترسل قائلاً : يا فتاتى الحبيبة . . لم يعد لنا غير ريع

ساعة فارحى نفسك وارحى أباك وارحىنى . . . ودعنى أبداً  
باستعمال الشرط . .

فأشارت إليه متمنعة ونحته عنها . . وأسلمت أمرها لله تنتظر  
قضاءه فيها . ولما لم تبق غير دقيقة واحدة صاح بها :

يا عزيزى أنه لعار على أن تموتى أماى وأنا مكتوف اليدين .  
إن كلمة واحدة من فيك كفيلة بانقاذ حياتك الغالية . ثم ركم  
بجانها ضارعا متوسلا يستحلفها وينادىها بأحب الأسماء إليها  
فأشارت إليه بأصبعها أجابة لطلبه فاندفع إلى ساعدها وقبض  
عليه بكلا يديه وأنهال بفيه على موضع اللدغة ينهل السم منه  
وبعد فترة قصيرة أفاق وردة واستردت نشاطها وقالت له قولة  
للمأسرة :

« ما كان ثمت شعبان يا عزيزى ولعلى مثلت دورى على  
النحو الذى ترضاه » فأجابها :

« ما كنت أجهل ذلك ولقد فطنت له منذ الصرخة الأولى »  
ثم طافت على شفعية بسمة حبيبة وقال : « ألا تكون هذه  
القبيلات القاتلة عربوناً لارتباط مقدس . »

وكان فيما جرى بين وردة وصاحبها شيء من الإغراء البريء

والإغواء السائغ، وما وردة إلا إحدى بنات حواء. وغشيها الصمت  
هنيئة.. غير أن الفتاة كانت مشوقة إلى استيعاب حديث الثعابين  
وكان الثقي محدقا في وجهها الوضاء كما يستوحى قسماته ما تحدث  
به نفسها، وقبل أن تبتدره بسؤال قطع حبل هذا الصمت فقال :  
« قد تكونين سمعت من جدتنا أو من إحدى عجائز قريتنا في يوم  
من أيام الطفولة بأمر الثعابين المعمرة أو كما يسميها العامة الثعابين  
« اللواتي » لأن عمر الواحد منها على ما يزعمون ينيف على ألف  
سنة مما يعدون ، ويسمونه كذلك « الآف » فإذا بلغ هذه السن  
ونبت الشعر على جلده فقد بصره فيعوضه الله عنه جوهرة وهاجة  
يكنها في جوفه فإذا خرج ليلا ألقاها تتدحرج أمامه. ومن مزاعمهم  
أنها إذا ألقيت أضاءت ما حولها فيجد على سناها هدى حيث  
يسير وإلى حيث يجد فرسته . وهو على هذه الجوهرة جد حريص ،  
فإذا بدأ نور الصباح غيبتها في جوفه مرة أخرى وعاد إلى مكانه فلا  
يخرج إلا إذا جن الليل . ولعلك سمعت فوق ذلك من أمر هذه  
الجوهرة عجبا وأن أناسا كانوا يقتفون آثار مثل هذا « الآف »  
فإذا تبينوها كنوا له عندها فإذا خرج وألقى بجوهرته تحمينوا فرصة  
غفلة منه عنها فانقضوا عليها في خفة وسرعة وطووها في لفافة كثيفة

حالكة اللون وفروا بها وهم أحرص ما يكونون على ألا يبين شعاع من نورها النفاذ فيتعقبهم صاحبها ويقضى عليهم . وإذا ما نجوا بها وآووا إلى مساكنهم وضعوها في كن لا يتسرب منه الضوء ووضعوا معها بعض الذهب فإذا أصبح الصبح وجدوا هذا الذهب مضاعفاً .

ولعلك ترين أن هذه المزاعم تحمل في طياتها دليل خرافتها . ولتعلمى أن العلماء المشتغلين بدراسة الزواحف وحياتها وطبائعها لم يجدوا في الثعابين ما يجدون في غيرها من العلامات الميرة الأعمار ، فلم يقطعوا برأى ثابت في آجالها ولم يعثر المشرحون منهم يوماً على أثر الجواهر في جوافها . ولعل خرافة الجوهرة نبتت من أن جمهرة الثعابين زواحف ليلية وبخاصة السامة منها ، وهي كغيرها من حيوانات الليل ينبعث من مقلها في الظلام الحالك ضوء لامع ، ولتقص جفون الثعبان عن عينيه وعدم إغماضها يستمر ظهور هذا الضوء منها .

ثم حانت منه التفاتة عارضة فرأى على كشب بين الأعشاب سحلية وضفدعا يتحفزان لصيد الهوام ، فكلما حامت فراشة أو ذبابة كان لسان أى منهما أسرع من البرق إلى اصطيادها ، فسكت



وظل يتابع حركاتهما في شفف واهتمام وسار في حركة غير إرادية فلما أحسا وقع قدميه اختفيا . وحول هذه الزواحف قامت خرافات لاتقل غرابة عن خرافة الثعابين . فقد زعموا أن الضفادع تسقى سكان القبور من قدموا في دنياهم صالحاً وتأتى يوم الحشر وفي فيها الماء فتسقى الناس في موقف يجف فيه الريق ويزيغ فيه البصر . وأن السحلية تحمل مفاتيح جنة الخلد ولذا استنكروا قتل هذه أو تلك أو الأعتداء عليهما .

ولما هم بالرجوع إلى مجلس وردة رأى في كومة من الرمال آثار ثعبان فجعل يبحث في التراب حتى أخرج حية رقطاء<sup>(١)</sup> قد حبستها الطبيعة ثوباً خلاباً يبهر العيون روثقه ولا يكاد يفرق بين رأسها وذنبها والتفت حول معصمه وحملها إلى وردة فانزعجت وصاحت به أن ألقها يابمجنون وإلا عضتك ، فكان في ذلك قضاء عليك . فتبسم ضاحكاً من قولها وقال : لا بأس على ولا عليك من هذه الحية فهي عزلاء من كل سلاح قاتل فأسنانها كأسنان « البلطية » لاتضر ولا تؤذى . ولو علم القدماء حقيقة أمر هذه الحية وغيرها من الحيوانات المظلومة « كالبرص » الذي اتهموه

بيث ميكروب الجذام فى ملح الطعام لأفادوا من الإبقاء عليها  
الشيء الكثير من إبادة الحشرات المنزلية الضارة كالديدان  
والصراصير والذباب والبعوض إلى غير ذلك . ولا بتدعوا لها  
خرافة تحميها كالسحالي والضفادع .

فلما أحس بعض الطمأنينة فى نفس وردة دنا منها وهو يداعب  
الثعبان «الدساس» ويمسح على جسمه وهو هادىء فتراجعت  
فى خوف قائلة : أنها تخشى أن تنالها الحية بلدغة من لسانها المسموم .  
فقهقه عالياً وكاد يستلقى من الضحك وقال ساخراً : « حقاً إن  
الجهل نور » يا عزيزتى من أنباءك هذا . وكيف يقرص اللسان  
أو يعض . لا يقرص ولا يقتل إلا لسان الإنسان . أما الثعبان  
فإن أكثر من استعمال لسانه فلأنه أقوى حواسه وهو له كمصى  
الأعمى يتحسس به كل ما يعترض طريقه ويختبر به الماء قبل  
أن ينزل إليه أو يشرب منه . والثعبان السجين يظل زمناً فى  
بدء إيساره يتحسس بلسانه نواحي الحبس ودقائقه لعله يثر على  
مخرج .

وكذلك قامت حول الذنب أراجيف شتى فذهب كثير من  
السذج إلى أن الثعابين تمض بأذنانها وأن هذه العضات كثيرأ

ما تودى بحياة الإنسان . وبلغ هذا الخوف مبلغاً عند هؤلاء الناس لدرجة أنهم يخافون من الذنب المبتور طالما هو يتحرك . ولعل هذه الأراجيف نشأت من أن بعض الحيات قد سلحت بشوكة في طرف الذنب . بل قد أذهب بك إلى أبعد من ذلك في الدفاع عن هذه الأفاعى وعدم الخوف حتى من السامة منها ، فهي بطبعها شديدة الميل إلى السكينة . لا تستثير عدواً ولا تبدأ بالمهاجمة . وكثيراً ما تحاول الفرار إذا هوجمت ولكنها إذا أخرجت اضطرت إلى انتضاء أسلحتها للدفاع عن نفسها فهي لا تستعمل السلاح إلا عند الضرورة الملجئة ولا تستعمله جزافاً كما يستعمله الكثير من أبناء آدم .

على أن هناك ضرباً من الحيات شذت عن هذه القاعدة وجبلت على الفتك والقتل . فحية الأهرام المعروفة بالغريرية<sup>(١)</sup> تهاجم الإنسان ولا تخشاه . وتتميز بوجود صليب على رأسها ، ولون ظهر هذه الأفعى ضارب إلى الحمرة أو زهراء وعليه خطوط بيض مشربة بنقرة . وهذه الأفعى سريعة الحركة كثيرة العض وتعتبر بحق أعدى أعداء الإنسان لأن سمها قاتل وضحاياها كثيرة

وخاصة في الهند . وقد يتناثر السم من أنيابها رشاشاً إذا ظلت مدة طويلة دون أن تعض فريسة ما ، ولا تتوانى في عض كل ما يقدم لها من الأشياء ، وإذا هاجت هاجمت كل ما يصادفها على غير هدى وتكثر هذه الأفاعى الشرسة في صحراء مصر . وتشبه الغريبة في شراستها وعدوانها حية أوربية تشترك معها في اسم « الصليبية »<sup>(١)</sup> وتنفرد باسم حية « جهنم » تنور أحياناً فلا تصادف شيئاً إلا ضربته بنيوها ثم تهدأ ثأرتها بغتة فلا تحرك ساكناً ولا تؤذى صاحبها ولو داعبها . وهناك غير حيات الأرض حية أمريكية تعيش بين الماء والشجر ضخمة الجسم مفرطة الطول حتى لقد يبلغ طولها عشرة أمتار أو يزيد وتعرف بـ « الأنا كندا »<sup>(٢)</sup> بالغة الخطر على الصيادين . ويروى راو أن أحد الهنود الحمر كان مع امرأته في زورق يتصيدان البط فرمى واحدة فجرحها ثم ترك بندقيته في الزورق وراح يتعقب البطة وما أن أدركها ومد يده إليها حتى أحست به إحدى هذه الحيات وفي مثل لحظة الطرف كانت قد طوقت جسمه وبدأت تهصر عوده فصرخ صرخة عالية مستنجداً

---

Vipera berus (١)

Anakonda (٢)

زوجته فأمرعت بمديّة حادة الى الحية فزقتها وخلصت زوجها من موت محقق .

وكان اصياد آخر ولد في العاشرة من عمره خرج معه مرة في الصيد فخلفه أبوه على حراسة صيده الذي جمعه على ضفة النهر وما كاد يعتمد عنه بعض خطوات حتى خرجت إليه أنا كندا فقيدت ساقه وهمت بمجذبه إلى الماء فصاح الطفل صيحة مزعجة فرجع إليه أبوه وهو بين طيات الحية وكان يجيد الرماية فصب إليها رصاصة أطاحت رأسها دون أن يمس ابنه بسوء ونجا من نيتتين بأعجوبة .

وكثيراً ما تشجرين التمساح الأمريكي ( الليجاتور ) على شراسته وبين هذه الحية معارك مروعة على ما في شهودها من روعة ومتمّة ، فيرى الرائي الأما كندا وقد التفت حول التمساح وهي تحاول قصف أضلاعه وهو يحاول ابتلاعها بين فكيه تارة والقوص بها تحت الماء تارة أخرى فلا ينال منها منلاً ولطالما انتهت هذه المعارك بانتصار الحية على التمساح والقضاء عليه . ومما يتحدث به أهل البرازيل أن أحد الهنود الحر واسمه ( مول ) خرج للصيد في الغابة ومعه كلبه وفجأة شرع الكلب ينبج نباحاً غير مأثوف علم منه

مسيده أنه لابد أن يكون قد بصر بأففى غريبة، وراح يفتش عنها وعلى غرة منه وقبل أن يهتدى إلى مكانها حاجته الحية ولدغته لدغة قاسية فلما أحسها أطلق عليها رصاصة دقت رأسها وفي مثل وميض البرق كان قد شق بطنها وأخرج مرارتها وأخذ يقطر صفراءها على جرحه بعد أن أوسعه . فمن عقائد الهند أن إفراز صفراء الأففى ترياق اسمها . وأحس (مول) أن الأرض تدور به وأصابه الوهن فسقط ورأى الكلب حال صاحبه فأسرع إلى القرية وهو ينبح نباحا محزنا فتوجس أهلها شراً واتبعوه إلى الغاب فدلهم على مكان (مول) فأروه طريقاً وبجانبه سيد<sup>(١)</sup> الاحراج قتيلا وهو ثعبان براز بلى ساء فتكشفت لهم جريمة الأففى وحملوا صيادهم وعادوا به الى القرية فعالجوه بما لديهم من عقاقير نباتية يرونها ناجدة فيما مر بهم من تجارب ولقد خفت وطأة الداء عن الصياد المسكين ولكنه لم يشف الشفاء الحاسم فقد كان في مثل اليوم الذى أصيب فيه من كل عام يعاوده الألم ويعاود ساقه الورم . وتعلمى إن لم تكن فى تعلين ان الثعابين لشدة رغبتها فى السكون وميائها إلى السلام تفر فى أوكارها ما يقرب من نصف

أوقات حياتها وتستغنى فيها حتى عن السعى في الرزق قائمة بالتغذى بما تكون قد أدخرته في أجسامها في فصول النشاط من المواد الدهنية ، وهي لا تنطاحن على الرزق ولا تنافس فيه ولا يعدو بعضها على بعض في سبيله . ولو نسج الناس على منوالها في ذلك ماتحاسدوا ولا تباغضوا ولا قتل بعضهم بعضا .

ولعل آباءنا الأقدمين كانوا أعلم منا بمزايا هذه المخلوقات وأوسع منا حيلة في استغلالها والانتفاع بها في أغراض حيوية شتى فأنخذوا من شحها بلسماً لأدواء المواسير والروما ترم والاورام الخبيثة . وقد ظهرت فائدة ذلك لبعض العلماء المصريين فاستعملوا سم «الناشر»<sup>(١)</sup> في مداواة السرطان والجذام . وفي بعض البلاد تستخدم الناس الحيات لمقاصد على الفيران وصغارها لأنها تستطيع الانسلال إلى جحرها الضيقة لطول أجسامها ودقتها ولينها فتخلصهم من صغارها قبل أن تكبر ويصعب اتقاء أضرارها . وفي البرازيل وفي الهند وفي جنوب إفريقيا معاهد خاصة تعنى عناية كبيرة بتربية الأفاعى وإجراء التجارب العلمية فيها ، واتخذ قدماء مصريين النواشر آلات مريحة لتنفيذ أحكام الأعداء عندهم

بدلاً من المقصلة والمشنقة. ولعل ذلك ما حدا «بكليوباطره» ملكة مصر إلى الاستعانة بالحية في خلاص مريح من حياة ملأى بالمتاعب وتوقى ذل الأمر وعاره بعد أن توات على جندها وجند صاحبها «انطونيوس» الهزائم. وقد صور أمير الشعراء شوقي هذا الحادث أروع تصوير فيما كتبه في مصرع «كليوباطرة» على لسانها مخاطب الأفعى :

هلمى الآن منقذتى هلمى

وأهلاً بالخلاص وقد سعى لى

شربت السم من فيك الندى

بسلطاني وزدت عليه مالى

وبعض السم ترياق لبعض

وقد يشفى العضال من العضال

هلمى عانقنى أفعى قصور

بها شوق إلى أفعى التلال

حياة الذل تدفع بالمنايا

تعالى حية الوادى تعالى

وكان من عظم اهتمام القدماء بالثعابين أن صوروها في معابدهم



ولم يجدوا حرجاً في أن يؤلموها وجعلوا منها رموزاً للقوة والسلطان فوضعوا صور الناشر في تيجان الملوك ، وكان « بوطو »<sup>(١)</sup> أى الحية المقدسة رمز الحكمة عندهم ، وكانوا يهتمون بحفظها بعد موتها بالتحنيط وأقاموا منها ومن القطة وعصافير الجنة حراساً على مدينة الموتى في طيبة . وما كانوا يفزعون من رؤيتها في بيوتهم بل كانوا إذا دخلوا البيوت يصفقون اعتقاداً منهم أنها إذا سمعت التصفيق أخلت لهم الطريق . ولا على أن أقص عليك خرافة كانت تسود الشعب المصرى في قديم الزمان وهى أن الأفاعى السامة كانت تخاطب الناس في بيوتهم وتعيش بينهم وتأكل من عسلهم وتشرب من نبيذهم وتحرمهم ولا تمسهم بسوء ولم يعكر صفو هذا الوثام بينها وبينهم إلا ما حدث في يوم من الأيام لولد أحد التجار إذ لدغه ثعبان صغير فقتله وجاءت أم الثعبان فلما علمت بالحادث قتلت ابنها ارضاء لأهل الطفل ورأت أنه قد يتعذر السلام بين الفريقين بعد ذلك فدعت أبناء جنسها إلى الهجرة . ومنذ ذلك اليوم تولدت العداوة بين الثعبان والإنسان . ويروى أن هذه العداوة كانت مكتوبة على الناس والحيات منذ أن أخذت

حية آدم إبليس في جوفها ومكنت له الوصول إلى حواء وآدم  
فاغراها بمخاتمة أمر ربهما وحرصهما على الأكل من شجرة المعرفة  
بل الشجرة الملعونة في القرآن فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما  
وظنفا يخصفان عليهما من ورق الجنة ثم اخرجهما ربهما منها  
وخرجت معهما الحية وكان الأمر الذي تلقته من الرب ( على بطنك  
ترحفين ومن تراب الأرض تأكلين كل أيام حياتك وأضع عداوة  
بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسائها ، هو يسحق رأسك وأنت  
تسحقين عقبه ) وشغل الحديث رفاة ووردة عن نفسيهما وعن  
العودة إلى مضارب الخياء . حتى مالت الشمس إلى المغرب . .  
وراح النسيم يتخال أوراق الأشجار المتمايلة فيسمع لها خفيف  
كخفيف الأفاعى التي يتحدث عنها رفاة ، وجعلت ألوية الظلام  
تنتشر رويداً رويداً حتى غشت أديم الأرض وهدأت الأنفاس  
وكانما سكنت كهنة (أتون) إلى المعابد يرتلون أنشودة الليل :  
أيها المعبود ! أتون لقد آويت إلى أفق السماء الغربى فشمّل  
الأرض ظلام كظلام القبور . .

ها هم الناس قد خفوا إلى مضاجعهم هادئى النفوس يداعب  
الكرى جفونهم فباتوا فى سبات عميق لا يحسون شيئاً .

وها هي الأسود الضارية قد نشطت من أجامها تطارد  
الغزلان الوادعة

وها هي الأفاعى اللادغة قد خرجت من أوكارها تفتك بكل  
حي من مخلوقاتك

وها هي الأرض قد سكنت وغابت عنها أشعتك الدافئة .

كل ذلك لأن مدبر هذه الكائنات وراعيا قد سكن إلى  
أفقه يستريح . أصاب قلب الصاحبين رهبة ووحشة . وأشفق  
الفتى على وردة فأخذ بيدها وهو يقول : لقد آن لنا أن نعود الآن  
فإننى أخشى على أهلك أن يأخذه القلق لغيبتنا ولأدع الآن  
هذا « الدساس » البريء يعود بدوره إلى داره . وأقاه فى رفق  
على الأرض فانطلق يزحف وها يرقبانه وقد تملك وردة الدهش  
لما خيل إليها من سرعة زحفه وسارا خلفه وهى لا تصدق أن  
فى طوقهما أدراكه . فلما لحقاً به تملكها العجب لما توهمت من  
سرعة . فزحف الأفاعى خداع للبصر يظهر تماوجه البطىء بسرعة .  
ثم تابعا سيرهما فى فتور وهما يتمنيان إلا تطوى الأرض تحت  
أقدامهما فتنتفى بانطوائها هذه الفترة الحلوة من حياتهما التى  
وهبها أياها الزمن . وأخذ رفاة يبدى أساء على انقضاء أمد

هذه الخلوة ويتمنى أن لو استحال طأثرى إلف بهذه الواحة يخلوان بها وبينان عشهما فيها ، وفطنت وردة إلى مرامى حديثه فاصطبغ وجهها بحمرة الخجل ولكنها استجمعت قواها من الرغبة المتبادلة بين قلبيهما وقالت لسانها يتعثر استحياء : أن في يدك تحقيق هذه المنى وما أخال عمك إلا بحبيبا رجاءك إذا كشفت له عن رغبتك وأطلعت على سريرة نفسك . فنشط رفاعه وانقلبت رغبته في البطء إلحاحا في الأسراع وود لو رأى نفسه مستقرا أمام عمه فتتحقق أحلامه وأمانيه . . . وسارا يستحضان الخطى حتى أتيا الخيام فانقيا الشيخ حيران قلقا وقد تملكته الوسوس والريب لغيتهما . فما أن رآهما وعلامم البشر دلى وجهيهما النذيرين الباسمين حتى اطمانت نفسه الطيبة وهذأت ..

ولم يطق رفاعه صبرا على ما تكنه جوانحه فباح لعمه بحبه لوردة وصارحه برغبته في اتخاذها زوجا له . . فسر الشيخ بهذا النبأ وقام إلى الفتاة وخطبها يقبأها ويباركها ويدعو لها أطيب الدعوات . . ثم أهاب بفتاته : —

« هيا ياوردة وهيئ لنا طعاما فقد نال منى الجوع ولا بد أنكما قد لقيتما في رحلتكما هذه نصبا »

أعدت وردة الطعام ثم دعتها إلى المائدة فجلسوا يأكلون ويتندرون ولعلهم لم يذوقوا طعاماً كان أشهى من هذا فقد أضفى عليه الجوع والسرور لذة لا تعد لها لذة .

وجاءهم نفر من أهل القرية مرحبين مهللين وانضم إليهم بعض أعضاء بعثة علمية كانت تنقب عن آثار في هذه المدينة الخالدة . واتخذ الجمع من حديث الثعابين موضوعاً للتسامر والتنادر . وراح الشيخ حسان يداعب ابن أخيه ويسخر من أفاعيه ويقص عليهم من أخبار الشيخ « عبد الفضيل » عميد قريتهم مع الأفاعي أغرب القصص . فقد زعم الشيخ « عبد الفضيل » فيما زعم أنه كان مسافراً في الصحراء ومعه بعيران وأدركه لغوب السفر فأوى إلى ظل ربوة يستجم بعض الاستجمام فأخذته سنة من النوم ثم فاق وقد أضى بعيريه فراح يتفقدهما ورأى على بعد شبحاً ضخماً ظنه أحد البعيرين فلما أتاه وجد الفاقاً ضخمة من اللحم يطل من وسطها رأس ضخيم يحمله عنق طويل كعنق البعير وتبينه فإذا هو أفعوان كجذع النخلة يبلغ طوله بضع قصبات فقفز الشيخ عبد الفضيل فوق ظهره فاعتلاه وجعل يسوقه بعصاه حتى أوصله إلى آخر السفر ثم نزل عنه وخلي سبيله فعاد أدراجه . وزعم أنه

هبط مع جماعة من صحبه حقل بطيخ فقدم لهم صاحب الحقل عدداً منه فأكلوا حتى امتلأوا وبقيت بقية تركوها حتى الصباح ولم تكن لديهم غير سكين واحدة وضعوها في إحداها . وقربت الثعابين في طوافها ليلاً بالبطيخ فأفرغت سمها فيه ما خلا تلك التي كانت تحميتها السكين وصبح الجماعة وهم لا يعرفون مما جرى شيئاً فطعموا من البطيخ فسرى السم في أجسامهم إلا الذين أكلوا من ذات السكين وكاد يقتضى عليهم لولا أن تداركهم الشيخ عبد الفضيل فجاء بوعاء ماء تلا عليه بعض التعاويذ ثم تفل فيه وسقام منه فبرئوا باذن الله !!

وكان رفاة يستمع لهذه القصص وأضرابها وهو يكاد ينشق من الضحك ورأى لزما عليه أن يخرج هذه الأوهام من عقول أصحابه فوعدهم أن يكون مسامرهم في تلك الليالى القمرية فيقص عليهم القصص الحق عن الزواحف في شتى شئونها .

## المحاضرة الأولى رأس الثعبان

ولما كانت الليلة الأولى وأشرق القمر بر رفاعة بوعدة فجلس بين القوم يسامرهم فقال :

« تعرفت إلى صديق في « المنيا » هو أستاذ التاريخ الطبيعى فى مدرستها الثانوية ، وكانت دراسة الزواحف جزءاً من المنهج المقرر على تلاميذه . وكان الأستاذ مغربى بدراسة هذه المخلوقات كلفاً بها يتقصى أخبارها ، وقد نشأت هوايته به من أنه كان يلتقى ببعض علماء الغرب الذين توفدهم حكوماتهم بين عام وعام إلى بلاد الشرق وسحراوته وتفتح لهم خزانات مالها للبحث عن نوع من الحيات لا يكون ممثلاً عندهم ، أو لتحقيق الفوارق بين ثعبان و ثعبان يكون التمس عليهم ، والعلم عند هؤلاء القوم ثروة ترخص فى سبيل جمعها للجهود ، ويتضاءل أمام توفيرها المال . وشعر حياء وطنيته بالخزى من أن يتجشم الغرباء المضنيات من بعد الشقة وكثرة النفقة لينقلوا إلى بلادهم علم ما لم نعلم من خواص

شئوننا وصميم أمورنا ، ولا يكون في مصر رجل واحد يمسح  
عن جبينها وصمة هذا العار ، فوطد عزمه على أن يكون ذلك  
الرجل . فنشط للبحث وعكف على الدرس وظل يستجمع من  
كل مربأة وكل ثنية ما تصل إليه يده ، ويتنقل بين معاهد  
الغرب يستطلعها ما يتطلبه بحثه حتى أخرج عن الثعابين المصرية  
كتاباً جمع شواردها ، وقيد أوابدها ، ونقله عنه بعض المعاهد  
الأجنبية المعنية بهذه الدراسات . فاطمأن إلى أنه قد أدى بعض  
ما يجب عليه من خدمة العلم ومن حق الوطن .

وكثيراً ما كان يخف بعض تلاميذ الأستاذ موسى  
— وهذا اسمه — فينقلون إليه ما يقع تحت أيديهم أو يصل  
إلى أسماعهم من الثعابين وأخبارها . وامل هذا كان تزلفاً منهم  
وتقرباً إليه ، أو لعله معاونة بريئة فيما شغفوا من دروسه وعلمه . .  
وقد جاءه يوماً بعض منهم وكنت في مجلسه ، فدخلوا عليه في  
حجرتة الخاصة وهو غارق في بحوثه ، واستأذنوا الرجل من الحواة  
الذين يحترفون صيد الثعابين فأذن له ، فإذا هو برجل قد فنى  
جسمه إلا أقله ، ولعل المتنبي قد عناه بقوله :

كفى بجسمى نحولاً إننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى



وكان قصير القامة قليل الظل أسمر الجلد واسع العينين نافذ  
البصر ساحر النظر قد توسط الحلقة الخامسة من عمره ، وفيه نشاط  
وفيه فتوة قد عصب رأسه بلقافة ضخمة من قماش أبيض ،  
وأسبغ على جسمه ثوباً أزرق فضفاضاً متهدل الأردان . أما قدماه  
فكانتا حافيتين لا يتسع ضيق ذات يده للإنعالم ، وقد تأبط  
خريطة زرها على أحناشه . وفي صحبته جارية صغيرة اسمها  
« سيدة » أكبر الظن أنها لم تدرج إلى الحلقة الثانية ملتفة في  
أسمال بالية سود ، وهي مثال ناطق لأبيها الحاوي وإن امتازت عليه  
بخفة الروح وظرف الطفولة . وكان ظاهر والدها الشيخ « عمران »  
يشف عما في باطنه من براءة وسذاجة وصراحة فجعته للنية في  
زوجه أم سيدة وضاق بموطنه في قنا ، فرحل عنها واستقر به  
النوى في بلدة « دمشير » قريباً من المنيا ، فصادف فيها حديقة  
مهجورة فسيحة الأرجاء ملتفة الأشجار قد مات عنها أصحابها  
وغفل عنها الخلف الذين خلفوا من بعدهم فلم يعد يتعهدا أحد  
بتهديب ، أو تمتد إلى نباتها يد بتشذيب . فنشابت فيها  
الأغصان ، واستغلظ فيها حوشى الأعشاب ، واطمأنت إلى وكونها  
جوارح الطير ، وأنست إلى وكورها سوارح الحيات ، ووجدت

أمراب الضفادع والقوارض رزقاً رغداً . وفشت أحاديث الناس ومزاعمهم عن هذه الحديقة وساكنيها من الجن وحراسها من الأفاعى . فهلمت لخشيئتها النفوس ، وتفرغت منها القلوب ، ولم تجرؤ قدم على الدنو من أسوارها حتى فى رابعة النهار . وسنحت الفرصة للشيخ « عمران » لاستغلال هذه الجنة المحفوفة بالمكاره ، وغامر بولوج الغيل على آساده ، ودخول الحصن على أجناده ، واعتمد على لطف احتياله حتى أنس بكل ما فيها . فكان يطرب لتنعاق البوم ، ويهش لتقيق الضفادع ، ويشجى لتفحيح الأفاعى . وكانت هذه الحديقة ضالته المنشودة فاتخذ من زواحفها رزقاً له ولا بنته ، فيحمل إلى المدينة الأحناش الحية وجلودها وشحومها فيبيعهما ويعود بثمنها وهو راض كل الرضا . قانع بما قسم الله له من رزق حلال .

وكانت فرصة ميمونة تلك التى وصلته بصديقى الأستاذ موسى فقد أفادت عليه ربجاً وأفاضت عليه علماً .

دخل الشيخ عمران حجرة صاحبي ووقف أمامه مأخوذاً ، فقد رأى غرفة فسيحة تتوسطها منضدة طويلة صفت عليها أوان عديدة يشف صفاء زجاجها عما حفظ فيها من زواحف شتى ،

إن عرف منها شيئاً فقد غابت عنه أشياء ، ورأى الأستاذ محققاً بمنظاره في ثعبان يعد صفائح بطنه وحوله بعض تلاميذه يدونون له ما يملئ عليهم . وبدأت على الشيخ الحيرة في تفسير هذه الأناز وكأنيما حدثته نفسه بأن هؤلاء السحرة يزعمونه في رزقه وينسبونه في عبثه . ولحظ الأستاذ عليه هذه الحيرة فأراد أن يمازحه ويتركه في حيرته فتشأغل عنه فترة ، ثم رفع رأسه يسأله عما في جعبته . فأخرج له خليطاً من نواشر ما بين أغبر مطوق بطوق أسود ، أو أصفر مشوباً بحمرة على الجسم ، وأراقم<sup>(١)</sup> مختلفة ألوانها بين رمادي وزيتوني ورملى به بقع غبراء ، ودسائبات رمادية أو مصفرة بها بقع كبيرة غير منتظمة لونها أغبر فاتم أو مائل إلى السواد ، ومقرنات<sup>(٢)</sup> وقرع<sup>(٣)</sup> صفر انتشرت على ظهورها بقع غبراء قد ثرمت أنيابها وكنت أفواهها جميعاً دون الدساس . وجعل الأستاذ يتناولها واحداً بعد واحد يفحصها ويدعوها صندوقاً بين يديه . ولما كان دور الدساس والأستاذ ممسك به يقابه بدرت منه حركة عصبية وعضه في أصبعه عصاة

(١) Coluber

(٢) Cerastes corastes

(٣) Cerastes vipera

أدمته ، فاضطرب الشيخ عمران وبدت عليه أمارات القلق خوفاً على صاحبه ، ولشد ما كانت دهشته حين رأى الأستاذ يمسح الدم بقطعة قطن مغموسة في الكحول وهو هادئ باسم يطمئن الحاضرين إلى أن هذه لا تضره في قليل ولا كثير ، وزادت دهشة الشيخ فسأل الأستاذ : هل هو « محوى أو واصل على الرفاعي » ؟ فصحك صاحبي حتى كاد يستلقي من الضحك وقال له : انتظر معي قليلاً فسأنبئك بعلم ما لم تعلم .

ودقت الساعة ليحاضر الأستاذ تلاميذه أعضاء جماعة الزواحف وكان قد وقّت لهم من فراغهم ساعات محدودة في أيام معدودة يختلفون إليه فيها يشهدون التشرّيع تارة ، ويستمعون للشرح تارة أخرى .

والتفت الأستاذ إلى الشيخ عمران يقول : «إنها افرصة حسنة أن تشترك معنا في هذا الدرس ، وليتك حريص على أن تكون معنا في بقية الدروس إذن لنسمعك رأى العلم في الثعابين وتقيسه إلى ما علمتك التجارب والملاحظات » . فسر الشيخ لهذا العطف ، وشكر لصاحبي تكرمه عليه وتبسّطه معه . ولقد واظبت

فما بعد على حضور سلسلة محاضرات صديقي ، كما حرصت على تدوينها . وهاكم بعضاً مما تعلمته عنه :

« لعل أول ما يسترعى النظر في الثعبان الاختلاف الواضح في شكله عن أشكال سائر الحيوان ، فهو جسم مدمج غير مفصل يسعى بغير أطراف ، على أن كثيراً من الحيوانات قد شاركت الثعابين في مظهرها الخارجي هذا فاندمت فيها الأطراف كما هي الحال في أنواع عدة من الأسماك اتخذت أشكال الحيات وأصبحت تسمى خطأ بثعابين الماء . وهناك طاقة أخرى من الحيوانات الصفدية<sup>(١)</sup> لا تشبه الصفدع المعروف في شيء ، ولكنها أقرب ما تكون إلى الثعابين الدودية الصغيرة لولا أن هذه الأخيرة سريعة الحركة ، ويمثلها في مصر نوع اسمه (الباح)<sup>(٢)</sup> وهو أصغر الثعابين أرجواني أغبر مشرب بحمرة والبطن شاحب ، وليس من السهل صيده لأنه أملس سريع الزحف قد ير على الإفلات ، ولا يعرف بالضبط على أي شيء يعيش . ويرجح أنه

Gymnophiona (١)

Leptotyphlops (٢)

يمش على الحشرات ، ولا يفوتنا بهذه المناسبة الإشارة إلى أن أكبر الثعابين في مصر هو الناسر المعروف و يبلغ طوله مترين . وكما أن في الأممك والضفادع كثيراً من أشباه الثعابين كذلك نرى في الحيوانات الورية التي منها السحالي والأبراص والورل والضباب وغيرها عدداً كبيراً من الأنواع<sup>(١)</sup> يصعب على غير المشتغل بالزواحف أن يفرق بينها وبين الثعابين ، ولولا وجود الجفون عند هذه الحيوانات وبعض فروق أخرى لا يتسع المقام لذكرها لانضمت هذه الزواحف بحق تحت سلسلة الثعابين .

ويقول العلم إن الزواحف وهي تضم التماسيح والسلاحف والحيوانات الورية والحراني والثعابين ، قد انحدرت كلها من زواحف بائدة لم يبق منها إلا حفرياتها ، وأن الثعابين وهي أحدث الزواحف ظهوراً على الأرض قد تطورت من زاحفات كانت تسير على أربع . والدليل على ذلك أن ضروباً من الثعابين لا تزال تحتفظ حتى الآن ببعض عظام الحوض وبالأطراف الخلفية ضامرة تحت الجلد ما نحسب وجودها عبثاً .

ولا يفتنى كذلك أن أوضح لكم أنه إذا تعددت الأسماء من

Anguis fragilis (١)

ثعابين وحيات وأفاعى فإن مدلولها جميعاً واحد ، على أن بعض العلماء قد جعلوا الحيات اسماً<sup>(١)</sup> جامعاً وخصوا باسم الثعابين الأنواع الجبلية<sup>(٢)</sup> وقصروا لفظ الأفاعى<sup>(٣)</sup> على السامة التي تحرك فكها العلوى .

وليس بالهين أن تقسم الحية إلى أكثر من رأس لاصق بطرف الجسم الأعلى ، وذنب متصل بطرفه الأدنى ، اللهم إلا إذا اعتبرنا الوصلة الدقيقة التي بين الرأس والجسم عنقاً .

وفى الحق أن رأس الحية هو موطن الخطر ، وجاع الشرفيه . وامل الصواب أن نقول ذلك عن الفم الذى هو أهم جزء فى الرأس . ويجدر بنا أن نلاحظ أن رؤوس الحيات كأجسامها لم تصب كلها فى قالب واحد . فمنها المستطيل الرفيع والعريض المنبسط ، ومنها المدبب والمستدير ، ومنها ما يكون فى مثل ضخمة المنق ، وما هو أضخم منه وأعرض . وفى الرؤوس عيون لم تطبع كذلك على غرار واحد . فمنها صغيرة دقيقة تختفى تحت حراشيف ، ومنها المتوسطة والكبيرة . وفى هذه العيون على اختلافها

Ophidia (١)

Colubridae (٢) وهى تضم الثعابين الضخيلة وفيها السام وغير السام

Viperidae (٣) كل حيات هذه العائلة سامة

سحر عجيب إذا سلط على الفريسة جمد الدم في عروقها فلا تستطيع حراكا حتى يلحق بها الثعبان فيواربها فيه . وقد حبت الطبيعة هذا القم بمظام متحركة ، وانقسم الفك الأسفل إلى شقين يصل بينهما رباط مرن ، فإذا فغر الثعبان فاه اتسع لابتلاع الفريسة الضخمة التي قد يكون حجمها خمسة أضعاف حجمه . وقد يحتال بعض الصيادين لصيد الحيات بربط فرائس كبيرة بالقرب من أججارها حتى إذا ابتلعها واستقرت في جوفها كانت بمثابة الغل لها وسهل عليهم الإمساك بها . وقد شاعت هذه الحيلة بين صيادي ( الأصلات <sup>(١)</sup> في السودان ) فهم يوثقون الأصلة عنزاً خاف جدار قد فتحت فيه كوة ضيقة لا ينفذ فيها جسم الأصلة إلا بمشقة ، فإذا نفذت بمقدمها وابتاعت العنر وهمت بالرجوع ضاقت عنها الكوة وظلت رهينة حتى يدركها الصائد فيقبض عليها .

ومن الطرائف ما يروى عن الأصلات الهندية أن واحدة منها صادفت ابن عرس فسلطت عليه عينها فسلطته ثم التهمت له ولكنه لم يكد يستقر بين فكها حتى أفاق من غشيته والتمس الخرج

١ Python (١)



فوجده بين عظام سقف الحاق غير الملتحمة فظل ينخر فيها بأسنانه الحادة حتى خرقتها وقفز منها ولكنه كان قد أصيب بعدة جراح من أسنان فوق عظام الحلق فقضت عليه كما قضى هو على الأصل . . وقد يتساءل متسائل كيف مر ابن عرس في فم الأصل وبين أسنانها وفيه أثار من حياة؟ والواقع أن الحيات على اختلاف أنواعها تبتلع العرائس ولا تمضغها وما أسنانها إلا أسلحة للفتك أو لمنع خروج الفريسة لأنها مدببة ومقوسة إلى الداخل . والمعروف عن هذه الأسنان أنها موزعة على الفكين جميعاً وقد تكون قاصرة على فك دون فك ، بل لقد تكون ضامرة أو معدومة ومن الأسنان أسنان صماء ظلت من بدء الخليقة حافظة شكلها لم يطرأ عليها تغيير ، ومنها أسنان تمحورت فصارت نيوباً ومن هذه النيوب ما لم يتم تمحورها فظلت قنواتها ظاهرة من خارجها . ومنها ما تد كل تمحورها والتحمت قنواتها فصارت أنابيب كأبرة الحقن . ومن العجيب أن تنبت هذه الأسنان في الفك ضعيفة فتقتلع في حالات الدفاع وفي حركات الابتلاع ثم تعود فتنبت بعد حين . والأسنان هي مقياس الخطر في الحيات . فالأسنان الأنبوية<sup>(١)</sup>

تكون دائماً في مقدم الفك الأعلى وتتصل اتصالاً مباشراً بالغدد السامة فيشتد خطرهما . أما الأنايب<sup>(١)</sup> القنوية فتكون في مؤخر الفك وعلى مقربة من الغدة السامة فيسيل السم في قنواتها تارة وفي تجويف الفم تارة أخرى فيقل خطرهما . أما الحيات<sup>(٢)</sup> العواطل من الأنايب فيسيل السم من غددها إلى تجويف الفم ويصيب الفريسة عن طريق الجراح التي قد تحدثها الأسنان الصماء ويمتد خطرهما إلى الفرائس الصغرى . وعلى هذه الأسس يمكن أن نقسم الثعابين إلى سامة ونصف سامة وغير سامة ، على الرغم من أن غدد السم لم يحجر وجودها واحد من هذه الأنواع . ولقد ذهب بعض الناس إلى أن النيوب تظل محتفظة بسمها فلا يؤمن شرها حتى بعد اقتلاعها . وقد زعموا أن حاطباً من أهل البرازيل خطب عروساً فأهدت إليه في ليلة الزفاف حذائين طويلين يقينانه نيوب الأفاعى إذا خرج إلى الغابة للعمل في قطع الشجر . وفي أحد الأيام عرضت له حية من ذوات الأجرام فهم بقتلها وهمت هى بالدفاع عن نفسها فعضته عضه أصابت حذاءه

Opisthoglyphae (١)

Aglyphae (٢)

ثم تولت عنه وعاد الرجل آخر النهار إلى عروسه وشرع يقص عليها قصته مع الحية ، ولم يكدها حتى تمت كلمة الأجل فيه . وبعد حين بنى بهذه المرأة حاطب آخر ووجد عندها الخدائين فلم يجد بأساً بأن ينتفع بهما ، وما أن احتذاهما أول مرة حتى لقي فيهما حتفه . وبقيت المسكينة وبقى الخدعان إلى أن فتح الله عليها بزواج ثالث وكان الحمام يترصده في خدائي صاحبيه فأصابه ما أصابهما ، وأخيراً رمى القضاء في أحضان المرأة المنكودة ضحية رابعة ، وترامت أخبار هذه الحوادث وتطلع الناس إلى كشف سرها فهداهم البحث إلى نابى الأنفى التى عضت الزوج الأول عالقين بأحد الخدائين وكشف لهم بذلك علة موت الضحايا الأربع .

وأقل القمر فأقل رفاة باب السمر إلى الليلة التالية .

## المحاضرة الثانية

### أجهزة الشعبان ووظائفها

وأشرق القمر في الليلة الثانية فاتخذ رفاعة مكانه من القوم  
ووصل ما انقطع من حديثه فقال :-

« انتهيت بكم في الليلة التي سلفت إلى ما انتهى إليه صاحبي  
في محاضراته الأولى لتلاميذه وللشيخ عمران وقد وثى رأس الشعبان  
ايضاحاً وتعريفاً ثم انتقل بهم في محاضرة ثانية إلى الكشف  
عن الأعضاء الباطنة في الشعبين وكيف أنها طويلة ممتدة  
تناسب أشكالها وظواهر أشكال أصحابها فقال إن المرىء أنبوبة  
طويلة تتصل بها معدة مستطيلة لا يفصل بينهما فاصل وفيهما  
مرونة فلا يضيقان عن الفرائس الضخمة التي يفرسها الشعبان .  
أما الأمعاء فقصرت وقلت فيها الألفاف وانتهت بمستقيم قصير  
يفتح في الجمع وهو الحد الفاصل بين الجسم والذنب ويقع الكبد  
على امتداد الجانب الأيمن للقناة الهضمية وهو طويل ورفيع ،  
وعلى مقربة منه توجد المرارة وهي تملأ بالصفراء حتى عند

الجنين . أما البنكرياس والطحال فيقعان على الجانب الأيسر  
للقناة الهضمية ويفرز الكبد ترياقاً يقي الأفاعى خطر سمها الذى  
تنفثه فى فرائسها وتفرز الغدد اللعابية كذلك إفرازاً يساعد على  
بلع هذه الفرائس التى يأخذ الشعبان دائماً برأسها خشية أن تعوق  
الأطراف عن ابتلاعها، وفى الشعبين قناة وعزوف عجيب عن  
الطعام فقد تصوم العادية منها بضعة أشهر أما الكبيرة الضخمة  
قد تصوم عشرة ولكنها راغبة فى الإكثار من الماء ما خلا  
الصحراوية فإنها تكتفى بما تجده من سوائل فى جسم الفريسة  
وعلى الرغم من قوة جهاز الشعبان وقدرته على الهضم حتى لا يدع  
من الفريسة إلا الشيء الطفيف كالأظافر والشعر والريش الذى  
تخرجه من (المجمع) فإن هذا الهضم بطيء لا يتم فى أقل من أسبوع  
فى الصيف وخمسة فى الخريف ويمتد إلى ستة عشر أسبوعاً فى  
الشتاء تبعاً لتدرج الحرارة التى يعتمد عليها الشعبان فى هضم  
طعامه وتضائل قلب الشعبان حتى كان أصغر أعضائه وامتدت  
القصبة الهوائية إلى مقدم القم لكى لا تعجز عن التقاط الهواء  
ولا يتعطل التنفس فى أثناء عملية البلع وطالت الرئة اليمنى وزودت  
بكيس يحتزن فيه الهواء فطغت على الرئة اليسرى التى توجد عادة

ضامرة منكشة وقد تنعدم فيما خلا بعض الثعابين كالأصلاط فتتكافأعندها الرئتان وأن كمية الهواء التي يختزنها الثعبان في رئته تغنيه عن هواء الجو ساعات بل لقد يستطيع أن يعيش في ناقوس مفرغ هواؤه أكثر من أربع وعشرين ساعة .

ولم يخل من الطول في الثعابين الجهازان البولي والتناسلي فالكليتان طو يلتان يخرج من كل منهما حالب يفتح في الجمع ولا توجد في الثعابين مثانة وتقع الخصيتان في الذكر أمام الكلية ولكل منهما وعاء ناقل يفتح بجوار الحالب ويبلل جدران الجمع بما يفرزه من الإفراز المنوي وموقع المبيضين عند الأنثى كموقع الخصيتين عند الذكر تماماً وتنتهى قناة المبيض بمهبل يمتد فوق المستقيم ويفتح في الجمع .

وكما تضائل قلب الثعبان كذلك دق منه المخ واحتفظ الحبل الشوكي بحجم كبير ينتهى بأخر الذنب وضعفت لدقة المخ هذه حاستا السمع والبصر فلا يبصر إلا الأجسام المتحركة ولا يسمع إلا الأصوات العالية ويؤيد ضعف سمعه ضمور الأذن وانعدام غشاء الطبلة إلى جانب دقة المخ وأن ذهب بعض العلماء إلى عكس ذلك وراحوا يدللون على حدة سمع الثعبان باصطدام

الموجات الصوتية بالطرف الخارجى لعظم الركاب وهو أحد عظام الجمجمة ويؤيد رأى هؤلاء فى حدة السمع عند الثعبان قوم يخافونهم فى تعيين حاسته فيذهبون إلى أنها ليست الأذن ولكنها اللسان إذ ينتشر فيه عصب دقيق يتأثر بأخف التموجات الصوتية وكلا الرأيين لم يؤيد بدليل من الواقع المحسوس الذى أثبتته التجارب كما أثبتت أن لسان الثعبان لا يغنيه عن عينيه الضعيفتين فإنه قلما يمتد به الأجل إذا ما نى بفقدما . ولم يعرف أن هناك ثعابين جديدة البصر غير حيات الشجر . ومما هو خليق بالذكر أن الثعبان لا يذوق بلسانه فإنه حتى الآن لم يعثر على أطراف العصب النوق فيه .

ودق كذلك العصب الشمى وقصر فتأخذ بعض العلماء ذلك دليلا على فقدان حاسة الشم فى الحيات . فبأية حاسة إذن يهتدى الثعبان الذى لا يكاد يسمع ولا يبصر إلى فريسته فى الظلام الدامس ومن أية حاسة تنفذ رائحة الكلوروفورم والنفتالين إلى الثعبان فتضجره وقد تقتله . أيمكن أن يكون ذلك إلا بالشم ؟ وللشم وظيفته الهامة فى تداعى الزوجين الذكر والأنثى إلى التلاقى عند التزاوج . فيوجد على جانبي قاعدة الذنب غدة مستديرة

تكبر عند الأنثى وتصغر عند الذكر وتقع خلف قضيبه المتصلين بفقرات الذنب وتفرز هذه الغدة مادة كريهة الرائحة ترسلها الأنثى على اجنحة الهواء إلى أنف الذكر سفيراً لاغتيالها فيجاوبها بريح مثلها تشمها هي الأخرى . ولا يزالان كذلك يتقاربان على مهب هذه الريح حتى يتلاقيا ويتعانقا فتنشط في الذكر حركة فرعى الشريان الظهرى الذى يكتنف تجويف اسطوانتى القضيبين ويعلأ انسجتهما فينتشران وينفخ سطحهما الأجوفان فيبرزان وتبدو الأشواك المنتشرة عليهما فينشبهما في جدر مهبل الأنثى بعد أن يكون قد ضمهما وكون من شقيهما المتقابلين قناة تخرج منها الحيوانات المنوية التى تجمعت فيها إلى قناة المبيض وفيها تخلص البويضات . وقد يتم تكوّن اجنتها عند بعض الأنواع فى هذه القناة ثم تقس فى داخلها أو بعد الخروج منها مباشرة . وأغلب الثعابين ( تضع بيضها ) الذى يتراوح عدده بين ٤٠ و ٦٠ بيضة فى مكان يتوافر فيه الدفء والرطوبة فتضعها بين الصخور أو تحت أعشاب الصحراء . ولما تعنى الحيات بهذا البيض بعد وضعه . على أن بعض الثعابين الضخمة تحتضن بيضها وترتفع حرارة جسمها بضع درجات فى



أيام الاحتضان والأمهات من الثعابين لا تكمل صفارها ولذا تخرج الصفار من البيض مزودة بكل ما يميزها في حياتها من قدرة على السعى لكسب القوت وبالسّم والناب في الأنواع السامة للفتك بفرائسها وللزود عن نفسها وينشط نموها في الأشهر الأولى ثم يتدرج تدرجاً طبيعياً بعد أن تكون قد ترعرعت وقويت وتظهر علامات هذه القوة في سرعة تعقب الفريسة وتسميمها أو الالتفاف حولها وهصرها تحت ضغط عضلاتها المفتولة التي تمتد على طول الظهر والتي تكتنف الضلوع وتصل بها بالفقرات وهي التي تسبب الزحف بتقلصها فيحدث انقباضها اندماج الجسم بتعرجات متناوبة يمنة ويسرة . ويساعد في اتمام هذه العملية سهولة التواء العمود الفقري وحركة الضلوع العائمة وتتصل بهذه الضلوع الصفائح العريضة العديدة التي على بطن الثعبان بنسيج عضلي ويمكن اعتبار هذه الصفائح أقداً وتلك الضلوع سيقاناً وكأنما يسمى الثعبان على أرجل داخلية لا يفتن لها الناظر وقد تستمر الحركة عند الثعابين حتى بعد قتلها وسلخها وخروج الدم منها وقد يظل الرأس بعد فصله يتحرك حركة مستمرة وينساب الجسد يضرب في الأرض على غير

هدى وترجع هذه الحركات إلى حيوية العضلات ولقد رأيت  
ذلك رأى العين في عمليات التشريح التى أجريتها ولعل هذه  
المشاهدات قد افسحت للناس مجال التنذر بمحادث لم تسلم  
من المبالغة عن بعض اجزاء من الثعابين فصلت عن أجسادها  
ولم تنج بعض الضحايا من شرها . .

وأقص عليكم نادرة رحالة إنجليزى كان يسير فى أحد أغيال  
أستراليا ومعه عدد من كلابه فظهرت له حية بغيضة قبيحة الخلق  
كريهة النظر فى رأسها قرون ناتئة وحول عينيها وأنفها صفائح  
بارزة ويسمى لذلك الإستراليون (حية الموت) فأغرى بها الكلاب  
فألقض عليها اثنان ذهباً ضحية النضال معها وسدد إليها الرحالة  
رصاصة أطاحت رأسها عن جسمها فذهب كلب ثالث يداعب  
الرأس الطائر فأصابته منه غصة الحقته بأخويه .

وكما يزحف الثعبان على سطح الغبراء يستطيع أن يتسلق  
الجدر والأشجار ويقفز فى الهواء قفزات واسعة وكم أزعج بهذه  
القفزات فارساً فوق جواده أو جملاً فوق جملة بل لقد يقفز فى  
مركبات القطارات السريعة وهذا سر تسمية بعض الثعابين

بالطيارة<sup>(١)</sup> وكذلك يجيد السباحة في الماء بل لقد ألفت بعض الحيات<sup>(٢)</sup> العيش في البحر والتوالد فيه وهيأتها الطبيعة لهذه البيئة فضممت الصفائح البطنية في بعضها وانمحت في البعض الآخر واستحالت أذنانها زعانف كزعانف السمك وانقطعت كل صلة بينها وبين البر فلا تخرج إليه ولا تطبق الزحف عليه ولهذا الثعابين خطرهما الدائم فكم وقعت في شبكة صياد في الخليج الفارسي وهو جاهل بها غافل عن سمها فلقى حتفه من أنيابها .

وتنشط حركة الحيات وتهدأ تبعاً لدفء الجو الذي تعيش فيه و برده فيكثر دؤوبها في الربيع والصيف وتفتقر وتحمل في الخريف والشتاء وإذا اشتد البرد وأدركها القر أخذت إلى السكون التام ولجأت إلى البيات الشتوي في أجحارها وفي هذا الفصل تهبط درجة حرارة أجسامها خمس درجات أو أكثر ولعدم ثبات درجة هذه الحرارة سميت الحيات وأمثالها بذوات الدم البارد . وكثيراً ما يستغل بعض الحواة المحترفين هذه الظاهرة في التمويه على جمهور المتفرجين وخداع الناظرين ليستجلبوا إعجابهم ويستدروا أموالهم ومن طريف ما يروى في ذلك أن حاوياً إسبانياً كان يظهر على

بعض المسارح وقد لف حول صدره وعنقه أصلة ضخمة يبلغ طولها نحو اثني عشر متراً والمعروف عن الأصلة أنها قد تشتبك مع التماسح العظيم والنمر الخطير وأضرابه من الوحوش الكاسرة فإذا التفت حولها حطمت أضلاعها وأزهقت أرواحها فيثير مظهر الرجل بين أطوائها عجب النظارة وإعجابهم ويقابلونه في كل مرة بعاصفة داوية من التصفيق وكانت له خلية تعينه على سبك حيلته فتغمر الأصلة قبيل ظهور صاحبها بها على المسرح في حوض من الماء الثلوج ثم تخرجها خدرة فاقدة الحس فلا تضر الرجل شيئاً وينخدع الجمهور الساذج بهذه الحيلة المحبوكة . ولحظت الخلية على صاحبها في أيامه الأخيرة أنه كان يغافل ويفازل بعض الممثلات والمعجبات بقوته وجراته ويتصل بهن اتصالاً مريباً أثار غيرتها واشتدت الغيرة فصارت حدة واشتد الحقد فصار بغضاً وأصرت على الانتقام لنفسها منه فأغفلت الأصلة في إحدى الليالي ولم تغمرها بالماء كعادتها وحملها الظلوم الجهول إلى المسرح بين هتاف الناس وتهليلهم وما هي إلا لحظات حتى وجم القوم كأنما سكرت أبصارهم وتجلت أمارات الفزع على وجوههم ودب الإضطراب في صفوفهم فقد رأوا الأصلة تضيق الخناق على الرجل وتشد على عوده الرقيق بمجرد إحساسها

بحرارة جسمه فاحتبس الدم في وجهه وتدلى لسانه من فمه ثم سقط على خشبة المسرح جثة هامدة . حدث ذلك وخليته من وراء الستار تنظر إلى صنع الحية مستشفية من غيظها منه ونقمتها عليه والمرأة لا تقف عن ارتكاب أفظع الجرائم إذا أكلت الغيرة قلبها ولعب الشيطان برأسها . وكذلك ذهب المسكين ضحية كيد امرأة كانت محبتها أشد خطراً عليه من محبة الحية ولعل في مثل هذه الحوادث عظة للغواة المفتونين بمظهر النساء وخضوعهن واين حديثهن فليس ظهورهن في هذه الجلود بواق من شرهن لأنهن إذا انتابن كان في انقلابهن خطر لا يدفع كالحيات التي تعجبك أجسامها ويستهويك لمسها وتروك ألوانها الباهرة الفاتنة ما بين أسود فاحم وزيتوني قائم وأصفر ناصل وذهبي لامع وجلود قد وشتها خطوط طولية متوازية أو عرضية متلاحقة أو غشها قطع متراكبة مختلفة الأصباغ متباينة الألوان أو غير هذا أو ذاك مما تذهل ريشة العنان المبدع عن تصويره . ولكنها على الرغم من هذا الجمال قد كن في أنيابها الموت . ولا يمكن التعويل على هذه الألوان في التفريق بين نوع ثعبان و ثعبان فقد أربت أنواعها على سبعمائة وألف ، تفرقت في جميع بقاع الأرض وتجمعها تسع

عائلات وخصت المنطقة الحارة بأكثر هذه الأنواع ولا بد لتمييزها  
من الخبرة الواسعة والعلم الوفيرومن أهم ما تميز به اختلاف الأسنان  
وعدد حراشيف الرأس والظهر وصفائح البطن .  
وأقل القمر فأقل رفاة باب السمر إلى الآية التالية . . .

## أعداء الثعابين والسم

وما أشرق القمر في الليلة الثالثة حتى إنخذ رفاعه مكانه من القوم ليصل بما انقطع من حديثه وقال :

لقد انتهيت بالأمس حيث انتهى صاحبي من محاضراته الثانية في شرح ناحية هامة من نواحي وصف الحيات والآن نتقل معه حيث انتقل صديقي إلى الكلام عن أعداء الثعابين قال : إن لها كما لغيرها من سائر المخلوقات عداة من جنسها أو من دونها لتحد من تفشيها وتنتفح الطريق لغيرها في الحياة فكان لها من جنسها أنواع عدة تهدو عليها . فالتأشر<sup>(١)</sup> البنغالي الذي يسميه الخنود «ملك الحيات» لا يجد أكلة أشهى من ثعبان يلتهمه . ومن روايات المرجفين عنه أن له حاشية قوامها عشر حيات فإذا اشتت نفسه الطعام أرسل صغيراً خاصاً متى سمته الحيات أسرع إلى المثل في حضرته فيختار أحداها غيلة فينفث فيها سمه ثم يبتلعها . ومثل

هذه الأفاصيص لا يعوزها الدليل على الشك في صحتها وإنما ولدها  
عدوان هذا الثعبان على بنى جنسه .

وهناك ضروب أخرى ليست أقل خطراً على بنى جنسها من  
الناشر البنغالى وإن كانت غير سامة وإن أجدرها بالذكور  
« المسرانا »<sup>(١)</sup> وهى حية اليفة من حيات البرازيل يحتفظ بها  
الناس فى بيوتهم ولا خطر منها عليهم ولا على أطفالهم ودوابهم .  
وغذاؤها الوحيد الثعابين وأحياناً أروها وأنكرها كذوات  
الأجراس التى لا تكاد تظهر بها المسرانا حتى تقبض على عنقها  
بالنواجذ وتقتلها ثم تعود إليها فتوارى بها فى جوفها . وقد كان  
حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد الأول بما أوتى من  
سعة علم وحب اطلاع ويحث كل ما يعود على أمته بنفع يهتم  
بشئون الزواحف اهتماماً كبيراً فاعتزم نقل عدد من هذه  
الحيات إلى مصر لإكثارها فى المناطق التى تكثر فيها الحيات  
الخطرة انتضى عليها كالناشر والبخاخ والمقرة .

أما الخضارى<sup>(٢)</sup> فلا يقتصر غذاؤه على التوارض بل يفترس

Muscivora (١)

Malpolon monspessulana (٢)



كذلك الثعابين فيشلها أولاً بسمه ثم يبتلعها بعد أن يتأكد من موثها ويعيش هذا الثعبان ويختفي بين أوراقها فيصعب العثور عليه نظراً للونه الأخضر المشرب بالصفرة .

ولأبى السيور الغيطى<sup>(١)</sup> الشرس معارك مروعة مع الثعابين تنتهى عادة بانتصاره عليها وقتلها وابتلاعها . وهذا الثعبان جرىء كثير العن سريع الحركة فإذا ما ظفر بالغريبة وهى أفعى قاتلة التف حولها وخنقها بعضلاته وقد يقتلها بسمه ثم يبتلعها . ويكثر هذا الثعبان فى الحدائق والحقول ولون ظهره زيتونى وعليه خطوط صفراء ونعل من أطرف ما يروى من شأن هذه العداوة أن بعض أنواع الحيات مترصد البعض الآخر حتى إذا ظفرت هذه بفريسة وابتلعها انقضت عليها وافترسها فكانها فازت بفريستين فى وقت واحد .

وكذلك سبط على الثعابين من الأجناس الأخرى عداة عديدون نجتزى بذكر بعضها وانعرض عن بعض خشية الإطالة والملل .

فالملة الصغيرة تجند جنودها ثم تزحف على الثعابين فتجبد فى

لسع شفاهها وعيونها ولا تزال بها حتى تقضى عليها وتلتهمها فلا تدع منها إلا عظاماً عارية ولا تجد انثعابين إلى مقاومتها حيلة . وللثعابين نوع من التمراد الدقيق يعلق بها فإذا صحبها إلى أجحارها أو إلى دور أسارها وتكاثر في أرضها فلا سبيل إلى خلاصها منه ويظل يشرب من دمها حتى يهلكها .

ولو لجأت انثعابين إلى البحر لوجدت سمك القرش يترصدها فإذا وقعت بين أسنانه الماضية قطع أوصالها وغشيها في جوفه . وهي إذا غرتها نضرة الرياض وحامت حول غدرانها فقد لا تنجو من قنفذ ما كره إذا اشتد رائحتها في سواد الليل أو في بياض النهار أقبل عليها غير هيباب ولا وجل حتى إذا كان منها على قاب رفع ألقه ونشر شوكة فكان له بمثابة الخوذة والدرع والسلاح ثم يلتقي الخصران فيمكن القنفذ للثعبان أن يعضه عضه وعشرا وعشرين دون أن يحدث السم فيه أثراً لقوة مناعته ثم ينقلب الثعبان مشخناً بالجراح من أشواك القنفذ منهوك القوى من النضال فينقض عليه ويقبض على عنقه ويخلص الكون من شره . وأشواك القنفذ ليست درعاً تقيه شر الأفاعي وسلاحاً ينازلها به فحسب ولكنها وقاية ضد كل عدو له ولهذا الحيوان النافع الوديع

المولع بالعزلة أيام يمكن فيها تحت أوراق الشجر الجافة التماساً للدفع فتطارده الكلاب المؤذية وتخرجه من مكانه إلى العراء تحت القروا والطل فيقضى عليه وهو أجدر ما يكون بالحفاظة جزاء وداعته وانتفاعا بشجاعته .

وللثعابين من ابن عرس عدو له خطره فهو إذا خرج ليلا يعبث بين جدران البيوت في حظائر الدواجن يعدو عليها ويتطف رؤوسها وصادف ثعباناً طعنه من خلف وحاول تمزيق منطقة الذنب منه وكثيراً ما تتاح الفرصة للثعبان فينقلب عليه وإذا تمكن من عضه عضات محكمة فقد تودى بابن عرس لأنه أقل مناعة ضد سم الأفاعى من القنفذ واضرابه .

أما أبو منتن وهو حيوان قريب الشبه بابن عرس بعيد عن مثل خفته ونشاطه شديد الكسل في النهار دؤوب في الليل أكتسب اسمه من افراز كرية تفرزه غدد خاصة فيه . تمر به الحيات نهراً فلا يابه بها ولا يحاول مهاجمتها ولكنها إذا وقعت تحت نظره ليلاً فهيئات أن تسلم من أمنائه الحادة ولا تغنى عنها أنيابها السامة في مدافحته شيئاً فقد توافرت فيه المناعة ضدها .  
والتمس المصرى أو فأرة فرعون يخرج تحت ستار الليل

باحثًا عن فأر أو طير أو حشرة عامرة ببعض الثعابين فإذا صادف حية فالويل لها من حدة نابه ولا خوف عليه من سم نابها فقد أوتى من المناعة قسطاً وافراً وله مع الحيات مناورات شائقة يكثر فيها الكر والفر حتى يتمكن من رأسها فينقض عليها ويشدد حنقه فيظل يضرب بها الأرض وهو يزجر حتى يميتها .

وللثعلب كما للنمس في قتال الحيات حيل ومداورات فإذا هوى هاجمته القمها ذنبه بعد أن ينفش شعره فلا تصل أنيابها إلى جسمه الخالي من كل مناعة ضد سمها ثم يجذب ذنبه من فيها بسرعة وقوة فتثرم أنيابها ولا يزال بها كذلك حتى يفض أفواهاها ويأمن خطرها ، ثم ينقلب عليها فيمتكسها . وامل الحواة أخذوا عنه هذه الحيلة فتراهم في صيد الثعابين يلقمونها قطعة من الصوف مثبتة في طرف عصا فإذا عض عليها الثعبان قبضوا على عنقه قبضة لا يستطيع الإفلات منها .

وكما كان للثعابين عادة في البر والبحر لم يخل من أعدائها الجو فالغريبان تنقض على رؤوسها من السماء فتظل تنقرها دون أن تظفر الثعابين بعضة تدفع غائلة الغريبان عنها فتخر صريعة أما الصقور الجوارح فإذا حاولت مهاجمة حية هبطت على جسمها

فيتسع المجال للحيات إلى عصفها فتذهب ضحية لسمها .  
 وكل خطر على الثعابين من عدائها لا يقاس بخطور الإنسان  
 عليها وعداوته لها فهو يستخدم عقله وعلمه وقوته في إبادة  
 وتعرف أساليب القضاء عليها ودراسة بيئتها وأنواعها والتفريق  
 بين سالم وخطيرها وتحري أسباب التخلص من سمها والأمصال  
 الواقية منه .

ولما كانت الطبيعة حريصة على المحافظة على بقاء كائناتها فقد  
 وهبت الثعابين من مماننة البيئة ميرة طبيعية تستغها في التخفي  
 عن أعدائها . مثلها في هذا مثل الحرباء والحشرات وغيرها التي  
 تكتسب لون الوسط الذي يحوطها فيصعب على عدوها الاهتداء  
 إلى مكانها . غير أن هذه المماننة ليس فيها كل النجاء . فالعدو  
 يعرف عدوه ويعرف كيف يثاقه مهما تغيرت ألوانه واستحكمت  
 مكانته . .

على أن الطبيعة وقد سلطت أبناءها بعضهم على بعض قد مدت  
 الجميع بأسلحة يدفعون بها الضر عن أنفسهم ويوقعون بها الأذى  
 بغيرهم .

فالبكتريا والفطر لها سلاحها السام الذي تنقته في المواد الغذائية

كالأغذية المحفوظة والبطيخ . وأخص بالذكر هنا « البطيخ »  
إذ يقرن الناس عادة بين فسادهِ وبين الثعبان فيتهمون الثعبان  
ظلماً وزوراً إذا تركوا البطيخ معرضاً للهواء بأنه نَفث فيه سمه أو  
كما يقول عامتهم « بَخ » فيه أو « شمه » . . . والحق أن الثعبان يرى  
مما يتهمون فما فسد البطيخ إلا من سموم البكتريا التي يحملها الهواء  
وهناك نباتات أخرى خضراء نضرة في عصارته سموم تقضى  
على الحيوان والإنسان . . .

وحتى الحيوانات الدقيقة لم تخل من أنواع السموم تفرزها  
فتشل بها حركة فريستها وتلتهمها .. وكذلك الحشرات والعناكب  
لم تحرم هذا السلاح الفتاك في غددها .

أما الأسماك فإن الأنواع السامة منها تكون عادة ذات ألوان  
خاصة ولبعضها أشواك طويلة مدببة وبعضها على هيئة الثعابين .  
وشكلها عادة قبيح نحيف يبعث الرعب في قلوب أعدائها التي  
تجد في التهام بويضاتها حين وضعها إذ ترى فيها نسل عدوها . .  
ويوجد السم في هذه الأسماك في أبسط صورة أى في دمها مم ينتشر  
في جميع أجزاء جسمها وخاصة في الكبد والأعضاء التناسلية .  
فاذا أكلت هذه الأسماك دون طبخ تسم جسم آكلها .. ويحكو

في ذلك أن أحد الإيطاليين شرب قدراً من دم « الجريس » المسمى بشعبان السمك ممزوجاً ببعض البيذ فظهرت عليه أعراض التسمم فضاقت نفسه وزاغ بصره واضحت عيناه كقطعتين من زجاج جامد لا نور ولا حياة فيهما لولا أن أسعف لقضى . .

ويوجد سم السمك في غدد في أفواهها يتسرب منها إلى تجويف الفم ويصل إلى جسم الفريسة بواسطة الجروح التي تحدثها الأسنان غير المجوفة والتي لا تتصل بالغدد . . وقد توجد هذه الغدد السامة تحت زعانف الأسماك وأشواكها التي تكون في العادة مجوفة وأكثر ما توجد عند غطاء الخياشيم . وقد تكون هذه الغدد منتشرة تحت الجلد حيث تفرز إفرازاتها السامة . وقلما تتهاجم هذه الأسماك الإنسان وإنما يصبه سمها إذا هو ووطىء بقدمه إحدى أشواكها أو لمس بيده زعنفة من زعانفها .

ويؤثر سم الأسماك تأثيراً مباشراً على الأعصاب ويسرى الألم في المرىء والأمعاء ويعقبه مباشرة ضيق في التنفس وهبوط في القلب وخلل عام في المركز العصبي وتنتهي الإصابة في الغالب بالوفاة وللضفادع أيضاً سلاحها من السم الذي يمكن في غدد في جلدها

أما «السحالي» فلا يعرف غير نوع<sup>(١)</sup> سام واحد منها ما يوجد في صحراء المكسيك . ولهذا النوع غدد سمية في الفم وأسنانه مجوفة . اما الطيور والثدييات فخالية من الغدد السامة وقد عوضت عنها بأسلحة غير السم تشهرها عند الفتك بفريستها أو حين اللود عن حياتها كالحالب والمناكير والأسنان والأظافر . غير أن بعضها قد زود بغدد شبه سامة يستعين بأفرازها في الدفاع عن نفسه . ومن هذا البعض عائلة ابن عرس ومنها «ابو منتن» الذي يفرز إذا أحس خطراً يهدده سائلاً من غدة خاصة . وكثافة هذا السائل دون كثافة الماء ولونه أصفر ذهبي وهو قابل للاشتعال بلهب ساطع تنبعث منه رائحة كبريتية كريهة . ولهذا السائل تأثير شديد مسمم على الأغشية وإذا أصابت العين نقطة منه التهبت وإذا تنشق الإنسان تخدرت أعصابه ..

ويقال إن في اليابان فأرة سامة تحدث عضتها جرحى متقطعة وتظهر في مكان العضة بقع زرق محمرة ويشعر المصاب بالآلام عصبية ويعتريه ذهول ويحس قرعاً في أذنيه ويستشعر خوفاً من الضوء ويتصبب عرقه ويصيبه انحلال في القوى ثم يقع في غيبوبة ..



أما الثعابين فتفرز سمومها المختلفة التأثير من غدد خاصة . ويحدث الإفراز بواسطة انقباض العضلات المتشعبة حول هذه الغدد والمعروف ان الثعابين السامة قلما تفرز سمومها . أما الأفاعى فلا ينقطع لسمها افراز حتى إذا هي فقدت أنيابها . إذ أن سمها يسيل من قناة الغدد السمية إلى تجويف الفم فيلوث الأسنان الصغيرة . ولكن قل أن تكون اللدغة في مثل هذه الحالة قاتلة . ويلاحظ عادة على الثعابين السامة أنها تنفقد الميل إلى اللدغ إذا هي فقدت أنيابها ومن الثابت المحقق انه لا يمكن إرغام الثعابين على نث سمومها نظراً لقوة عضلات أفواهها فهي لا تنجود بسمها إلا بمحض إرادتها وفي حالة ثورتها . ولكن شوهد أن «الصل» (الكوبرا) قلما تهدأ لها نائرة أو يننى عن المهاجمة .

وللبخاخ<sup>(١)</sup> وقليل من الأنواع الأخرى طريقة غريبة في قذف سمه من فتحات أنيابه . فليس زعماً باطلاً ما يقصونه عن مقدرة هذه الثعابين على أحكام الرماية وإصابة سمها للهدف الذى تقصده وهو عين الفريسة . فقد أثبتت التجارب أن أكثر ما تصيب هذه القذائف السامة من جسم الفريسة العين . وأن لها

تأثيراً سيئاً على القرنية والملتحمة قد يذهب أحياناً بالبصر . ويرجع قذف السم على هذه الصورة إلى سرعة وقوة الهواء المنبعث من الرئة حاملاً معه السم المتطاير كذاذا المطر . ويكون هذا السم في بادئ الأمر زجاجاً شفافاً فإذا جف صار لوناً رمادياً ضارباً إلى الصفرة .. وبفضل ما كشفت عنه التجارب من أن السم في الثعبان من المواد « التوكسينية » المماثلة لسم البكتريا والمشتعلة على « اتيجين » أى المواد التى تولد الأجسام المضادة فى الجسم ) أصبح من المستطاع استخدام هذه المواد السامة فى عمل الامصال المضادة للتوكسين . وليس من السهل تعريف سم الثعبان . فهو عبارة عن مقادير صغيرة من المركبات الكيميائية — سيأتى تفصيلها فيما بعد — إذا سرت فى الأجسام الحية غير المحصنة أصابتها بأذى شديد إن لم تفقدها الحياة . غير أن هناك عوامل أخرى — أغلبها طبيعى لها أثر غير قليل فى تأثير هذه السموم . فمثلاً تأثير السم فى جسم الطفل يختلف عنه فى جسم الرجل . فأغلب ما تكون النتيجة فى الحالة الأولى وفاة عاجلة بينما هى قد لا تعدو أضراراً طفيفة لا تلبث أن تزول فى الحالة الثانية . وكثيراً ما نجا أناس من تأثير هذه السموم تبعاً لدرجة قوة المقاومة الطبيعية الكامنة فى أجسامهم

كما يمتاز كثير من الحيوان بمناعة قوية ضد اللدغات السامة .  
وليست هذه المناعة قاصرة على أجزاء خاصة من الجسم تحول دون  
سريان السم أو توغله فيه كأشواك القنفذ والطبقة الدهنية في  
الخنائير وريش الطيور وإنما تقوم هذه المناعة على استعداد طبيعي  
عام في أجسام هذه الحيوانات .

وتختلف خواص السموم باختلاف أنواع الثعابين وحجمها  
وغذائها . كما تتفاوت كمية سمها باختلاف فصول السنة . فتمرز  
الثعابين في فصل الصيف سمّاً أكثر مما تمرزه في فصل الشتاء .  
وبنقع غدد الثعابين في الماء المقطر وترشيحه يحصل على  
سائل متعادل أو قلوى خفيف التفاعل لا يقل تأثيره الفسيولوجي  
كثيراً عن تأثير السم ذاته .

والسم عادة شفاف إلا في حالة التهاب الغدد السمية فقد يتعكر  
بفعل الخلايا الحامضية والكريات الدموية البيضاء . وهو لا طعم  
له ولكن قيل عن سم الكوبرا أنه مر مذاق . وهو عديم الرائحة  
غير أنه في بعض الأحيان قد يكتسب رائحة منبعثة من جسم الثعبان .  
وسواء أكان السم سائلاً أم جافاً فإنه قابل إلى حد ما لذوبان  
في الماء المقطر أو في محلول ملح الطعام الفسيولوجي . ويبدو الماء

المذاب فيه السم هلامياً وإذا ترك المحلول مدة من الزمن تكونت فيه رواسب من المواد الزلالية والمخاطية وبقايا من الخلايا المخاطية وتفاعل سم الأفعى حمضى وهو فى الثعابين إما حمضى خفيف أو متعادل وهو يتكون من خثائر ومواد زلالية ومخاطية ودهنية وأملاح . كما يحتوى على ماء بنسبة ٦٥ - ٨٠ فى المائة . والعناصر المولف منها السم هى الكربون والأزوت والكبريت والزننيخ وتختلف السموم من حيث مقدرتها على تحمل الحرارة . فبينما ترى سموم الثعابين تتحمل حرارة فى درجة ١٠٠ نجد سموم الأفاعى تضعف عند درجة ٧٠ - ٨٠ وإذا ما سخنت سموم الثعابين حتى درجة ٧٥ انفصلت عنها الأجسام الزلاية ورسبت وأمكن الحصول على خلاصة السم بمعالجة السائل بعد ترشيحه بالكحول والمعروف أنه ليس لسم الثعابين تأثير ضار إذا أخذ عن طريق الجهاز الهضمى الخالى من الجروح . ويرجع الفضل فى بطلان تأثير السم فى الجهاز الهضمى إلى تأثير العصارات الهضمية .

وكان رأى الشائع حتى سنة ١٧٩٤ أن لمصل أى نوع من الثعابين خاصية إبطال سموم أنواع الثعابين الأخرى إلى أن أثبتت التجارب أن لكل مصل صفة لا يشاركه فيها غيره . فصل الكوبرا

مثلاً لا يبق من سم الأفاعى . وكان لهذه النتائج العظيمة خطرها فى كشف الستار عن وسائل العلاج الحديثة .

والطريقة المتبعة فى صناعة الأمصال تجري كالآتى :

يؤتى بالسم فيمخض ويرشح ويوضع فى أوان زجاجية منبسطة داخل إناء التجفيف فى درجة حرارة ٣٧ ثم تذاب كميات كبيرة من السم فى الجلسرين على شرط أن يكون مجففاً ومعقماً ويحفظ فى درجة حرارة ٣٧ حتى يتخلص من البكتريا ويضعف فى الوقت نفسه السم دون أن يفقد خواصه السمية وبذا يصبح صالحاً للاستعمال . أما إذا حقن به مباشرة فقد يضر بالحيوان ضرراً بليغاً وتستخدم لهذا الغرض الخيل والبغال لأنها تعطى كميات كبيرة من المصل . فتحقن تدريجياً وفى فترات متفوتة بكميات محدودة من هذا السم مع ملاحظة حالتها الصحية أثناء ذلك وبتكرار هذه العملية تتكون فى دم الحيوان الأجسام المنفعة . فيؤخذ جزء من دمه ويترك حتى يتجمد وينفصل عنه المصل .

وقد عفى الناس منذ القدم بوصف الأعراض التى تظهر على الإنسان إذا عضه ثعبان . وقد طابقت هذه الأوصاف التجارب العملية التى أجريت أخيراً على سموم الثعابين .

وتختلف أعراض التسمم الناشئة عن عضه الثعبان عن الأعراض الناشئة عن لدغ الأفاعى .

فعضة الثعبان لا تشر تحدث تغييراً موضعياً طفيفاً فيكون الألم يسيراً وبعد قليل يبدأ شعور بعدم الراحة . ويكون النبض فى مبدأ الأمر سريعاً ثم يأخذ فى البطء . وبلى ذلك ضعف فى السيقان ثم يذب الشلل فى الأعضاء . أما التنفس فيبدأ ببطء ثم يسرع . ثم يغتمر المصاب فى غيبوبة وعندما يشل مركز التنفس تحدث الوفاة . ويتم ذلك بعد بضع ساعات أما عضه الأفعى فتحدث ألماً موضعياً شديداً وتسبب توسيعات فى الأغشية ورشحا دمويًا مصلياً . ثم تظهر الأعراض العامة للتسمم كالقيء . والإسهال وإدماء الأنسجة المخاطية . والأمل فى الشفاء من عضه الأفعى أكبر منه فى شفاء عضه الثعبان .

ويختلف التسمم من حيث سرعة ظهور أعراضه وسيره ونتيجته باختلاف كمية السم ونوعه وموضع اللدغة ومبلغ سريان السم فى الدم والجلد والغشاء المخاطى السليمان لا يمتصان السم تقريباً . ولا يؤثر سم الناسر إذا أخذ عن طريق الجهاز الهضمى . أما سم الأفعى فيحدث التهاباً فى الغشاء المخاطى للمعدة وزفا دمويًا فى

قناة الجهاز الهضمي . ويقتصر أثر البخاخ على العين في الألم المبرح والالتهاب والعمى الجزئي أو الكلى وقد يحدث أن يرتد البصر إلى العين بضع مرات خلال شهر أو شهرين ثم يفقد الإبصار في غائب الأحيان إلى الأبد . ويتكون على القرنة عادة طبقة بيضاء غير شفاقة . . .

وكان الناس ولا يزالون يفرعون اسماع خطر الثعابين ويهربون جانبها ويتحاشون بأخبار لدغتها الفتالة . ولعل هذا كذا البعث لهم على محاربتها ولافتتان في اتقاء شرها . وهدام بحثم وتفكيرهم إلى اكتشاف الترياق الذي فيه شفاء لهم من لدغتها ومن كثير من العلل والأمراض كالأشل والصرع والجرب وغير ذلك . . . وأول من اكتشف الترياق طيب من جزيرة كريت كان يعمل في حاشية القيصر « اندروماكوس » فكان لكشفه أثر عظيم في ذلك العهد . ويستخلص الترياق من الأفاعى بعد طبخه بجميع أجزائها ومحتوياتها من الأمعاء والكبد والرأس أيضاً بغدده السامة . وانقضى زمن ليس بالقليل قبل أن تزول أهمية هذا الترياق . . . على أنه لم يبق منه غير دهن الثعابين تستعمله الفانيات لإزالة النمش من أجسامهن وليكسب بشرتهن نعومة وطراوة . .

وكان الرومان في حالة الإصابة بلدغة الثعبان ينصحون بتعاطي  
 النبيذ مضافا إليه الكون والفلفل والثوم . كما كان البراهمة  
 يشيرون باستعمال « حجر الثعبان » الذي أثبتت الأبحاث الحديثة  
 أنه كان يصنع من الفحم الحيواني فيمتص السم . ويعتقد أهالي  
 البرازيل أنه يكفي لشفاء المصاب أن توضع على الجرح ضفدعة حية  
 بعد شق بطنها كما أنهم يتقنون مهاجمة الثعابين لهم بالنوم على جلد  
 الأيل اعتقاداً منهم بأنها لا تقربها لأنها من أعدائها . . . ويستعين  
 أهل مصر على الاستشفاء من لدغ الثعبان بأن يوضع على موضع  
 اللدغة الحام بعد ذبحه مباشرة وتنف ريشه بسرعة قبل أن تزول  
 من جسمه حرارة الحية . .

أما طريقة العلاج الحديث فينبغي أن تسير كما يأتي :  
 يبدأ أولاً بمحاولة وقف انتشار السم في الجسم وحصره في  
 منطقة الجرح لمنع وصوله إلى القلب وذلك بأن يربط الجزء الأعلى  
 مكان الإصابة رباطاً شديداً محكماً بحيث يتعطل سير الدم ويحسن  
 أيضاً أن يعمل رباط آخر احتياطي في مكان أعلى من مكان  
 الرباط الأول . ويلى ذلك العمل على إخراج السم من الدم بأن  
 يشرط مكان الجرح لتسهيل منه أكبر كمية ممكنة من الدم . فإذا



لم يتيسر إجراء القسريط فليعمد المرء إلى إمتصاص الدم بأنهم بعد تيقنه من خلوتجوييف القم من الجروح أو الخدوش. ويجب أن يوضع بعدئذ على الجرح قليل من ماء الكلور أو محلول برمنجانات البوناسيوم المركز للقضاء على عناصر السم. وفي حالة تسرب السم إلى أجزاء الجسم الداخلية تجب المبادرة إلى إعطائه المصل الخاص. ويحسن أن يتناول المصاب شراباً مدققاً كالشاي أو كرنياك. وأخيراً ينبغي إراحة المصاب ولفه بالأغطية لتدفئته.

ولقد عرف الإنسان فيما عرف أثر السم وفككه فتخذ منه سلاحاً حفيماً دينياً للخلاص من أعدائه والقضاء عليهم.. فهو عدة الجبان الخائر واللينيم الماكر الذي لا يجروء على مواجهة غريمه وجهاً لوجه وسلاحاً بسلاح. فكم من جرائم اقترفت وعروش تقوضت وتيجان طوحت وأمراء وعظماء قضوا وكان السم هو السلاح..

وعرف الإنسان السموم أول ما عرف في النباتات. وأول ما أفاد منها في العلاج ثم كشف عن ناحية الشرف فيها فستخدمها في القتل والانتقام... وفي التاريخ القديم قصص وأساطير نفهم منها أن السم عرف في المعابد واستعمل في إزهاق الأرواح فكان يوضع في الشراب ويدس في الطعام وتطلى به أبواب العرائس فيتلقهن

الموت بين طليعتها . . وانتشر استعمال السم في الشرق ومنه انتقل إلى الغرب فتنسرب فيه إلى القصور والحدود ومن أغرب ما يروى في ذلك أن « فردريك الثانى » كان يجمع فى بلاطه الفتيات الحسان والنفيد القاتنات فيعودهن تعاطى السم بالتدريج حتى تتسم به أجسامهن الجميلة فلا يؤثر فيها شره فاذا تنكر العاهل العظيم لأحد أمرائه أو حقه على أحد أصدقائه أو حى إلى واحدة من فتيات القاتكات بالتودد إليه وإيقاعه فى شرائك حبها وأغرائه بالزواج منها فما يكاد المسكين ينعم بحرارة جسدها حتى يلقي منيته فى أحضانها . . ولا أقهر سر هذه الميتة العجيبة ولا أجد تعليلا لهذا الضرب من التسم .

على أن الإنسان قد اقتن فى استعمال السم وتفتق ذهنه الجبار عن طرق غريبة لإخفائه فاستخدم فى ذلك الدبابيس والإبر المحوفة والجوارب والروائح العطرية وغيرها . كما مزجه بالسكر والنبيد فاستطاع بذلك إزالة ما فى مذاقه من مرارة . .

وأفل القمر فأقفل رفاعة باب السمر إلى الليلة التالية .

## مأساة في قصر

ولما أشرق القمر في الليلة الرابعة اتخذ رفاة مكانه من القوم  
ايصل ما انتقطع من حديثه وقال :

حافظ الشيخ عمران على زيارتنا أنا وصديقي الدكتور موسى  
حتى أصبحنا نستوحش لغييبته ونسعى للقاءه . وكان صاحبي لا يفت  
يمده من حين لآخر ببعض المال كما كان هو لا يألو جهداً في إهدائه  
من آن لأن بعض ما يهوى من أنواع الزواحف النادرة وأهداه  
فيما أهداه مرة ناشرأ صغيراً .

سر صديقي بهذا الناشر وسماه « بوطو »

فوجيء صديقي بفقد الشيخ عمران كما فوجيء بفقد عزيز آخر  
إذ انسل ثعبانه الصغير « بوطو » من مكانه وضاع كل بحث عنه  
سدى .. وهكذا فقد الهدية ومهديها .

تسلل « بوطو » الصغير من سور المدرسة إلى حديقة مجاورة  
وراح يدب في جنباتها ويسعى بين أشجارها . وكانت هذه  
الحلة مثابة لأنواع شتى من الحيوان والطير والحشرات نفست

عنها طلائع الربيع غبار الخول فنشطت بعد جهود الشتاء وهبت  
تستقبل الفصل الجديد . فإذا ما لاح الفجر وبدا نوره الرطيب  
رددت الأفنان تغريد الأطيوار وملأ البشر والبهجة أرجاء الحديقة  
وإذا سجد الليل وانتشر الظلام وهذأت الأنفاس وسادت الوحشة  
والسكون تجاوب نقيق الضفادع ونعيق البوم فكانت نذراً  
ترعد لها أفرانخ الطير في اعشاشها وصغار الحيوان والزواحف في  
إجحارها لا تدري اتدهمها العوادي بيئاتا وهي نائمة أم تنتظرها إلى  
الصباح وهي سارية ..

واحس «بوطو» رعدة تتمشى في جسده فأنحاز إلى جانب  
مستور وجعل يرقب بعين حائرة ما يجري حوله فراحه انقضاء اليوم  
كالصاعقة على تلك الصغار المسكينة تهدم أوكارها وتمزق أحشاءها  
ورأى اعمامه الأفاعى زاحفة كالسيل تطارد فرائسها في جوف  
الليل وفلول الجرذان تسابق الريح في جريها تتلمس اللبأ من  
عدوها فأيقن «بوطو» المسكين بالشر الذي يهدده والموت الذي  
يتوعدده فاعتصم بقطعة من الحجر وجد تحتها جحراً صغيراً كمن  
فيه حتى تهدأ العاصفة . وطال كونه ولم يكن قد طعم منذ ليال  
وألم عليه الجوع فدفعه إلى المخاطرة فخرج يتلمس ما يسد به الرمق

وهو حذر جد الحذر ومرت بجانبه « سحلية » مسرعة روعته لأول وهلة إذ ظنها عدواً فاتكا وجعل يتتبعها بعينيه وما هي إلا طرفة العين وانتباهتها حتى بصر بالسحلية في قم ثعبان غيره يتلعبها وبعد قليل أبصر ضفدعا كبيراً فتقدم نحوه وحلق فيه فحمد الضفدع في مكانه فانقض عليه وعضه بنابه عضه تركته صريعاً وحاول ابتلاعه ولكن أنى لقمة الدقيق أن يتسع لذلك الضفدع الكبير فارتد عنه يائساً محزوناً وسار يفتش عن فريسة أخرى ثلاثه فاهتدى أخيراً إلى غدير صغير مليء بصغار الضفادع وقد وشت حواشيه أعشاب تؤى كثيراً من السحالي فاتخذ من هذا الغدير مستقراً ومقاماً وطاب له العيش فيه فظل عدة أشهر لا يفارقه .

قوى « بوطو » في هذا الغدير واشتد ومرت على الطراد والصيد وهاجه الطمع إلى البحث عن كنز آخر أغنى وأوفر فخرج يتهادى وقد اشرع عنقه زهواً وانتفخت أوداجه تهباً وامتلأ رأسه غروراً ولم يجرح كبريائه إلا أن رأى جماعة من الصقور تحوم في الجو ثم تهوى فجأة على ثعبان أقوى منه عضلاً وأشد بأساً فتركت صريعاً ومرزقه إرباً وأسرع جهده في الفرار إلى منجى لا تدركه فيه عين الصقر ولكن الخطر في هذه المرة كان يهدده من فوق رأسه

ومن تحته فلم يكذب يندس سواد جسمه في مخبئه حتى أدركه «ابن عرس» فتشبث بذنبه وجعلا يتجا ذبانه فأب ابن عرس بجزء من الذنب ونجا الناشر . . واعتكف في ملجئه حيناً يعانى آلام مصابه حتى اندمل جرحه وغادر الجحر . . وما كان أشد عجبه حين خرج إلى الخلاء فإذا هو لا يكاد يرى شيئاً مما حوله نفيل إليه أن طول ثوائه في الجحر قد أعماه ، ولم يكن عى ما أصابه ولكنها غشاوة عارضة من كدورة سائل عكر ينضحه جسمه تحت قشرة جلدية شفاقة هي ( ثوبه ) أو سلخه الذى يبدله من حين إلى حين ويفرز هذا السائل عادة إذا آن أن ينسلخ الثعبان من ثوبه لتسهيل به عملية الانسلاخ وفي وسط الغشوة التى أحاطت به طفق يستخدم لسانه يتحسس به الطريق حتى اصطدم بجذع نخلة فجعل يحتمك بالجذع إلى أن تمزق الغشاء عن شفتيه ووضح له سبيل التخلص منه فاستمر يعالجه حتى سلخه عنه وتركه مقلوباً .

وكان قد انهكه هذا المجهود فاستكن بضعة أيام استجم فيها وارتد بصيراً وتفتحت شهيته وعاوده النشاط للسعى فى طلب القوت من جديد وبقى يغدو ويروح يأتية رزقه رغداً وقد غفأت عنه الأحداث ونامت عنه عيون الأعداء ووجد فى هذه الجنة

أمنًا ودعة وجريا على الطبيعة الكامنة في جنسه لم يحاول الانتقال عن هذه البقعة الهادئة .

ولكن الليالى مهما سالت لا بد وان توقد نار الحرب فبعد سنوات خمس مرت كحلم الحالم فوجيء « بوطو » فى إحدى الليالى بجلبة صارخة وأصوات مزعجة فقد غزا الحديقة جيش من الخنازير المسلحة بمخراطين كالمعاول وأنياب كالمناجل وجعلت تعيث فيها تقلب أرضها كأنها كأنها محراث الفلاح فأخرجت دفائنها وفزعت أوامنها وأثارت كوامنها وما ظفرت بزاحف إلا التهمته ولا حيوان إلا التقمته فوق الاضطراب فى صفوف تلك الحيوانات الصغيرة الضعيفة أمام قوة هذا العدو الجبار فهرعت الضفادع والجردان والسحالي والأفاعى تتلمس النجاة وقد سدت عليها المسالك . فلما استيأست وقفت بعض الطوائف تدفع عن نفسها وكانت النواشير بالطبع أفتكها سلاحا وأحدها نابا فكرت كرة المستميت وراحت تعمل فى الخنازير أنيابها وتنفض فيها سمها ولكنها كانت كرة خاسرة فماذا عسى أن تفعل النيوب أو تؤثر السموم فى تلك الدروع المنيعه من شحم الخنزير . تثلم السلاح ونفذت الذخيرة وجل العدو الغاشم جولة وحشية قاسية أوسع فيها الأفاعى تقتيلا وتمزيقا

« وبوطو » المسكين يشهد مصارع بنى جنسه على هذا النحو الشنيع فجمد في مكانه ينتظر مصرعه لولا معجزة أغفلت عيون الغزاة عنه ولم يكد الصبح يتنفس والخنازير تترحل حتى فارق « بوطو » جنته التي انقلبت جحيمًا وانقلت إلى القرية كالسهم المارق وهو لا يؤمن بالنجاة ولكن انتظار المصراع المشكوك فيه بين جدران البيوت خير من الموت المحقق في ظلال الحديقة .

ودخل القرية على حين غرة من أهلها فألقى أحد الأراقم<sup>(١)</sup> البيتية النامية وبين فيه ناشر قد غيب أكثر من ثلثيه في جوف الأرقم فعاوده القلق وعلم أن حظه العاثر قد فرّبه من قضاء إلى قضاء وبداله أن يدم الأرقم وهو مشغول بفريسته فيكون قد أصاب غرضين بسهم الانتقام لزميله والمخلص من عدوه وأقبل على العدو الجديد في شيء من الحذر يسدد إليه أنيابه فتصيبه تارة وتطيش أخرى ولكن لم تجده تلك الحيلة نفعاً ولم يحدث السم القليل في جسم العدو أثرًا فأيقن أنه لن يستشعر في جوار هذه الأراقم راحة ولا أمانًا وأثر أن يفر إلى حقول القطن القريبة من القرية ولما اطمان فيها إلى أحد الوكور تحت ظلال شجيرات

(١) Coluber ravergiera nummifer



النامية مضى يرقب في سكون ما يجري حوله فبصر بحشرة  
(المنتس)<sup>(١)</sup> الخضراء وهي تقضم بفمها إحدى ديدان القطن  
ورأى (منتس) أخرى وقد وقفت على أرجلها الخلفية ساكنة  
لا تتحرك ورفعت رجاها الأماميتين فوق رأسها كأنها تتعبد  
وتضرع إلى الله ولعل هذا ما حدا بالعامية إلى تسميتها ( فرس  
النبي ) ولم يطل وقوف هذه الحشرة طويلا على هذه الحال فقد  
هاجمتها ( سحلية ) وظلت تحاورها إلى أن داهمتها أخيراً والتمتها  
ولكن السحلية لاقت حتفها عند ما فاجأها ( أبو السيور )  
الثعبان العرييد وخنقها وراح يبتلعها في بطنه فخرج اليه ( بوطو )  
وعضه فللفظ ( أبو السيور ) فريسته وراح يحاور الناشر في سرعة  
ويغافله ثم يهوى عليه عضاً إلى أن أنخنه بالجراح ففر من أمام  
عدوه وهكذا ظل المسكين يستشفى من داء بداء ويخرج من بلاء  
إلى بلاء فقد خرج في الليلة التالية يفتش عن فريسة تدفع عنه  
غائلة الجوع فلاح له على بعد شبح ظنه في البداية مأراً ولم يتوجس  
منه شراً فتحضر للقضاء عليه وما أعجل ما تبين أن عينه قد كذبت  
إذ وجد إلى جانب الفريسة الموهومة ثعباناً قد فرسته فحدثته

(١) Nantis religiosa

نفسه بالثار لصاحبه واستجمع شجاعته وهجم عليها فتقبضت فإذا هي كرة من الشوك لا يجذ إلى داخلها منفذاً وآله وخز الشوك فتراجع قليلا ليستعد لهجمة أخرى وانقرطت الكرة الشائكة وعادت في هدوء إلى فريستها الأولى وأدرك « بوطو » أنه « القنفذ » العدو العنيد فجعل يخامره لعله يصادف منه مقتلاً وأحس القنفذ الشر من ضيفه فتأهب لمقابلة الشر بالشر وليعرف صاحبه أن لحمه عليه مر لولا أن قطع حبل الحركة مرور بعض السابلة فلما سمع الخصمان وقع أقدامهم توارى القنفذ في أعشاب الشاطئ و « بوطو » إلى نخلة باسقة كانت على كشب فتسلقها واتخذ من أليافها وقنواتها وكرأ ومن أفراخ اليمام الذي أقام عليها أعشاشه غذاء وظل كذلك هادئاً هائثاً حتى نضج البلح واعتلى النخلة بلاح فبدأ يضرب القنوان بعصاه ليسقط الرطب فانكش « بوطو » بين المراجين وأتم الرجل عمله وأدلاه والثعبان كامن في ثناياه وكان من المنتظرين تحت النخلة فتاة ناضجة أضفت عليها نعمة العيش جمالا وجلالا هي ابنة صاحب المزرعة ومالك النخيل أعجبها منظر التمر في عراجينه فمدت يدها إلى باحة منه بل إلى القضاء العاجل المستور فيه فأحست وخزة ظنتها من إحدى إبر

النخل ولم تحسبها من ناب الصل وأحست أن الدنيا قد اظلمت في عينها فتمتمت بمض كلمات خرت بعدها صريخة ولم تسمع الفرصة لإسعافها من سم لا يجدى فيه رقية راق ولا حيلة آس فحملوها إلى البيت تشيعها الحشرات وفي هذه الغفلة هرب المارد الأثيم فلما عادوا يفتشون عنه لم يجدوا إلا آثار زحفه إلى الغاب الملتف على شاطئ التربة وقد غيب نفسه فيه فلم يهتد أحد إليه .

طاب لبوطو المقام في هذه الخلوة التي لاتصيحها عين ولا تطؤها قدم وظن أنه في محله فريد وحيد ينعم بخيراتها دون شريك حتى كان يوم من أيام الربيع فانبعث في صباحه من جوانب الغاب ريح كريهة ملأت جوه ووصلت إلى أنف الثعبان فعرف فيها ريح أنثى من نوعه وتنبهت فيه الفريزة فجوابها بريح مثلها وجعلا يتدانيان على هدى ما يبعثان من الريح حتى تلاقيا ونم التزواج وراح يضرب في الغاب جذلان فرحا وهو أشد ما يكون نشاطاً وتعاقبت الأيام وانقضى الربيع ومن بعده الصيف وبدأ الخريف ينشر ألويته فأدرك « بوطو » فتور وعافت نفسه الطعام وعف راعماً عن مطاردة القوارض واغتيال الطيور واستكان حتى استخفت به أهون الطيور شأنها فما كانت تخشاه ( أم فسية )

الضعيفة وهى تتردد على جسمه طائرة هابطة تنقر ( الطمليات )  
 العالقة بجلده رغم دقة احساس هذا الجلد . عزف بوطو عن كل  
 ذلك ولم تعد به حاجة لعير الدفء فانزوى بين هشيم الغاب  
 وأعواده مستغنياً عما ادخر فى جسمه من دهن عن الطعام  
 والشراب قائماً بالتقليل من أكسجين الهواء فى تنفسه البطيء  
 وعكف على هذه الحال حتى تقلص الشتاء وعادت شمس الربيع  
 ترسل اليه أشعتها الدافئة من ثنايا الغاب توقظه وتنشطه فابعث  
 حياً يجد فى السعى لتعويض ما فقدته أيام الركود .

مضت فترة ووطو آمن فى غابه حتى آن أوان قطع الغاب  
 وبدأ العمال يعملون فيه القووس ووراءهم قطيع من الغنم يرعى  
 مكان الغصب . شعر بوطو بهذه الضجة فقام يتخبط بين العاف  
 النبات وكأما اشتد كلب الغنم ريح هذا العدو وسمع حفيف  
 جسمه بأوراق الغاب الجافة فوقف فى وجه الغنم يذودها عن مكن  
 الخطر وهو ينبج ويتلفت من الحذر ورأى الثعبان سلامته فى  
 النزوح عن مكانه وما كاد يخرج إلى الطريق حتى بصر به  
 الكلب فأراد أن يحول بينه وبين الهرب فواصل نباحه اينبه  
 الراعى أو العمال اليه وضيق الطريق على الثعبان دون أن

يشتبك معه وهو لا يجمل خطر هذا الاشتباك عليه وضاق الثعبان بمأورة الكلب فواجهه بعضة قصت عليه قبل أن يالحق به المدد وتنبه الراعى متأخراً فلما أقبل ألغى كلبه ميتاً فذهبت نفسه حسرات على صاحبه الوفي الأمين وأراد الانتقام له من عدوه المبين ولكن الثعبان كان قد نجا إلى جحر قريب بدت آثار زحفه عند بابه فوق رقيباً عليه وبعث بعامل من قاطعي الغاب يستعدى على الثعبان حاوى القرية الشيخ أبو المكارم فجاء مهرولاً ويده عصاً في طرفها قطعة من نسيج الصوف فطلب إلى أحد العمال أن ينبس الحجر بفأسه وهو قائم يترصد فخرج بوطو هائجاً وقد فرفراه وحدد لابه ليغمد في أول شبح يقابله فأداف إليه الحاوى قطعة الصوف فعضاها لعضة لمغيظ واجتذبتها الشيخ من فيه جذبة قوية خرجت ببعض انياحه وثنى بالعصا قنبتها فوق عنقه وقبض عليه من موضع العصا قبضة محكمة ثم عاد يلقمه قطعة الصوف وينزعها حتى فض فاه من جميع النيوب وكان في القرية شاب من ذوى اليسار قد هوى الزواحف وأعد لها في حديقة قصره معتلاً فسيحاً وفر لها فيه مظاهر بيتها وكان أبو المكارم يزوده بما تصل اليه يده من مختلف أنواعها فلما ظهر بالناشر

الجديد حمله اليه فأجزل عطاءه وصرب يوطو وضحه إلى مجموعته .  
وكان صاحبنا شاباً في ميعة الصبا لم يعد الحلقة الثالثة توفي  
عنه أبوه وهو لم يزل في المهد صبيّاً وخلف له ثروة ضخمة فكفلته  
أمه وكانت سيدة رقيقة القلب شديدة العطف ففالت في حذبها  
عليه ورفقها به ونشأته نشأة مدللة مائعة لا تصلح له خطأ ولا تقوم  
له عوجاً ولا تنهاء عن هفوة ولا تذوده عن جريرة فشب مستهتراً  
مريض النفس فطير الرأي فاطر العزم وانطبع على غرار أمثاله من  
أبناء المترفين الذين أتلفهم سقم الوراثة أو ضعف التربية فلم يقبل  
على طالب علم ولم يحاول أن يقوم بعمل وأحاط به عصابة من أقران  
السوء وشياطين الإنس الذين يهبطون على كل وارث من أبناء  
الأثرياء ويعيشون عالة عليه فزينوا له كل منكر وأحسنوا له كل  
قبيح ومهدوا له سبل الغواية فنهز معهم بدلوهم واندفع في تيارهم  
وراح يبذر النصار يمنة ويسرة وفطنت والدته إلى أنه سائر إلى  
إفلاس محتوم وتلف محقق فشرعت بمد طول التفريط وفوات  
الفرصة تعظه وتنذره فلم تجد العظام ولم تغن النذر فاضطرت  
إلى الحجر عليه والحد من إسرافه ولكن الداء كان قد استشرى  
وتمكنت العلة من نفسه فقبم في القصر يعيش بشخصيتين

متباينتين . يخرج للناس نهائراً في مسوح الزهبان ولباس العالمين  
يخادعهم برعاية أفاعيه تارة وبالعكوف على الصلاة والتسبيح تارة  
أخرى فأثرت الخديعة فيهم وانطلى الزور عليهم وكان بعض السذج  
منهم يترددون عليه متيمين ويفضون إليه بدخائل نفوسهم  
وأسرار بيوتهم طائعين وكان إذا أسدل الليل عليه حجاباه أعلن  
أنه آوى إلى خلوة التعمد وقد خلا في الحقيقة إلى شيطانه ثم انتزع  
ثوب النسك المستعار وأرسل نفسه على سجيته فعقد مجلس الخمر  
والخدرات بعد أن يكون قد نصب فخاخه ومد شراكه ليتصيد  
فريسة يقضى بقية الليل في أحضانها حتى إذا لاحت تباشير  
الفجر سرح الذبيحة قبل أن يستيقظ الحى فلا يفصح له سر  
ولا يهتك عنه ستر .

وكثيراً ما كان يتردد على « غريب بك » الشيخ دردير  
فقيه القرية وما أذونها ليتلو في القصر ما تيسر من آتى الذكر  
الحكيم ويتدارس مع صاحبه بعض أحكام الدين بقدر ما تسمح  
له بسائط علمه وكان « غريب بك » حفيابه يهش لقائه ويبالغ  
في إكرامه ويظهر الارتياح لمجلسه والاعتباط بمحدثه والإعجاب  
بقراءته لأنه يرى فيه خير مذياع ينشر على الملأ فضائله وما فنى

الفقيه يفاخر بصلته بغريب بك ويتمدح بنسكه وورعه وتواضعه وكرمه حتى أبرزه للناس ولياً من الصالحين وقطباً من الواصلين وكان لا بد أن تظفر بالنصيب الأوفر من هذه الإذاعة «عالية» امرأة دردير وهي بدوية نصف لم تذهب السنون بروعة جمالها وحسنها المطبوع ولم يذبل نضارة عودها حمل ولا وضع ولم يلوح صفاء بشرتها نصب ولا كد فقد كانت مهنة زوجها توفر لها العيش الهنيء وكانت عالية كريمة مريحة هوت إليها أفئدة من نساء الحى وفتيانها فلم تقفر دارها من واحدة تتحمل إليها أكلة شهية أو تحمل عنها عبثاً من خدمة الدار ووجدت في ذلك مسرة وسلوى فلم تشك في حياتها هما وهبطت عليها في السنوات الأخيرة خيرات القصر التي كان يأتي بها زوجها دون أن تنقل إليها قدماً أو تبسط لها كفاً فزرع ذلك في قلبها للقصر حباً ووداً فوق ما وطده فيه حديث الشيخ من ثقة وتقدير.

وحدث في أصيل أحد الأيام أن دعى الشيخ لحفلة عرس يتولى صينة العقد فيها وبحث عن بعض دفاتره فلم يجدها فحمل على عالية التي لا ذنب لها في فقدتها ونشأت بينهما جفوة لم تتعودها وخرج الشيخ مغضباً فشق الأمر عليها ولم تجد أمامها خيراً من



« غريب بك » تشكو إليه قسوة زوجها فولت وجهها شطر قصره فما أن استقرت عليها عينه حتى وقعت في قلبه وحسبها فريسة روضة ساقها الشيطان إليه وشرعت تقص عليه قصتها وهو يقلب طرفه في خبث ودهاء في جملها فلما فرغت من الشكوى راح يهدى من حنقها على الشيخ بحلو الكلام ويمنيها بما يضمن لها عدم عودة زوجها إلى إغضاها وكان لا يفوته في حديثه اطراء خلقها والثناء على زوجها . ثم أمر بأن تعد لها غرفة توفر لها فيها أسباب الراحة حتى يرسل في طلب الزوج . أوت عالية إلى غرفة فاخرة الأثاث غنية الرياش لم تر أو تسمع بمثلها من قبل فشغلت بهذا المظهر الباهر حينما تجيل البصر في نواحي الغرفة تارة وتمسح بيدها على فرشها تارة أخرى وهي تشعر كأنها في حلم لذيذ وبدأ لها أن تضطجع هنية على السرير المقام فيها بين حشايا الحرير وملاحف الديباج وراحت تتمرغ فيه وهي آمنة . وذهلت عن نفسها فأخذها النوم ولم تنتبه إلا بعد هجمة من الليل على يد غريبة تمسح على وجهها وتمر على شعرها ففتحت عينيها على شبح ارتاعت له ثم تبينته فإذا هو غريب بك يبتسم لها ويلقى بعض كلمات الغزل في أذنها وهم بأن يدنى شفثيه من جبينها فانتفضت .

مذعورة محنقة من هذه المفاجأة الغريبة فلم يكن ليخطر ببالها أن  
 ولى الله الناسك العابد ينقلب فاجراً أثماً أو أن « غريباً » الثرى  
 الوجيه الذى يستطيع أن يمتلك بمجاهه وماله أغنى وأجمل ربات  
 الخدور ينحدر إلى مهبط هذه الريفية الفقيرة التى لا تشعر بينها  
 وبين نفسها بشيء من الفتنة أو أن هذا الشريف الكريم ينزل  
 عن شرفه ويتخلى عن كرمه فيهلك حرمة جاره ويمزق عرض  
 ضيفه وبدأت تدفنه وتنهاه فى خوف ورهبة فلم يزد ذلك إلا غروراً  
 وتماذياً ، ولما أعيته الملاينة أراد أن يأخذها بشيء من الشدة فلم  
 يجد بداً من أن تقابل شدته بمثلها فصعته صفة قاسية ودفعته  
 دفعة قوية وانطلقت من باب الغرفة انطلاق القذيمة ميممة باب  
 القصر فأخطأت الطريق ووقعت فى حظيرة الزواحف وقد  
 خدعت فى زجاجها فخطته ، وكان الوحش الضارى يركض فى  
 أثرها ولحق بها فى الحظيرة فقرعت الأفاعى لهذه الجليلة الطارئة  
 وكانت أنياب بوطو قد تجددت فأنشبت فى ساق الرجل فسقط  
 السقطة الأبدية وطلب وهو فى حشيرة الموت إلى عالية أن تغفر  
 له جريمته وأن تنجو بنفسها من أفواه الموت الفاعرة فى جنبات  
 الحظيرة ثم أسلم الروح وخرجت عالية بعد أن شهدت مصرع

الفتى وهى تحمد الله الذى وفر عرضها ونجى حياتها وأيقنت أنه لا يغفل لحظة عن الظالمين وإنما يمهلهم إلى حين .

ولما أسفر الصبح ودبت الحياة فى القصر ونزل البستانيون إلى عملهم أنفوا أفاعى سارية فتطهروا والمخلت قلوبهم وانطلقوا إلى الوكر فهلم أن رأوا بعض ألواحه قد تحطمت وكل أفاعيه قد تسربت ووجدوا سيدهم ملقى حيث اقى حتفه فشدهم هذا المشهد الرهيب الذى عمى عليهم فلم يفقهوا من أمره شيئاً واهالت عبرات المولدين وتعال صيحات الناديين وأخذت منه الصيحة فدار بها القصر وما دت بها الأرض وطارت إلى مكان وحيدها وهى تتعثر وتتكفأ حتى انكفأت على جثته تقلبها وما تملك غير دمع مسفوح وقاب مجروح لا يقينانها فى رد القضاء فتبلى .

وكان الخدم بعد مصرع سيدهم وتحرق أفاعيه يتوجسون فى كل موطن قدم حتماً ميمتا فاستقدموا الشيخ أبى الكارم يفش لهم عن تلك الحيات وينقذ منها فعكف بضعة أيام على تقفيها حتى أتى على كل ما كان لا نذاً منها بالحديقة ، أما التى تحطت الأسوار وتفرقت فى الحقول فلم يستطيع لها طلباً .

وأفل القمر فأقل رفاعه باب السمر إلى الليلة التالية . . .

## موكب الرفاعية

ولما أشرق القمر في الليلة الخامسة اتخذ رفاعه مكانه من  
القوم ليصل ما انقطع من حديثه وقال :-

خرج الشيخ أبو المكارم وقد امتلأت جيبته بما تصيد من  
أفاعى القصر ومن بينها « بوطو »

وكان ذلك اليوم يوم مولد السيد الرفاعى وهو يوم مشهود له  
جلاله وله خطره عند أتباعه يتخذونه عيداً يحفلون له أينما كانوا  
ويحيون فيه ذكرى إمامهم الأكبر وهو بزعمهم صاحب كرامات  
قد سخرت له الأفاعى فى حياته ولم ينقطع سلطانه عليها بعد موته  
فما برحت أسرابها دائبة القصد إلى ضريحه فى سفح جبل المقطم  
تتمسح به وتطوف حوله وما برح صاحب التصريف فى شئونها  
تأتمر بأمره وتنتهى بنهيه والحكم الفصل بينها وبين خصومها  
يسجنها ويعذبها إذا جئت على أحد بغير جريرة ويصب عذابه  
على من يأخذها بغير جريمة .

وما عرف التاريخ إلا أن سيدي أحمد بن علي بن الحسين  
الرفاعي الذي ينسب الرفاعيون نسبهم إليه نشأ ومات في قرية  
( أم عبيدة ) بأرض البطائح بالعراق وقد دفن بها ولم يخرج منها.  
وكان رحمه الله فقيهاً من أعلام فقهاء الشافعية تخرج عليه عدد  
وفير من العلماء والمتصوفين وكان زاهداً عابداً رضى الأخلاق  
مشهوداً له بالحلم والعطف شمل عطفه الإنسان والحيوان . وقد  
بلغ من حلمه أنه لم يجز على سيئة بسيئة وكان حساده يرسلون  
إليه رسائل حافلة بأقذع أنواع السباب والانتقاص ويرمونه فيها  
بالإلحاد والزندقة والابتداع والدجل فإذا فض رسالة أحدهم  
وقراها ابتسم وقال « صدق فيما قال جزاء الله عنى خيراً » . حتى  
إذا يئسوا من اغضابه سعوا إليه منيبين تائبين . . . وقد أتى مرة  
صبية يتشاجرون فأصلح بينهم وسأل أحدهم ابن من أنت . فقل  
الصبي وما فضولك هذا . فضحك وقال جزيت خيراً فقد  
أدبتني يا بني .

وكان من حذبه على الناس أنه يخرج فيحتطب ويعود  
حاملاً الحطب فوق رأسه فيوزعه بين الأرامل والنساء كين  
والمرضى والعميان والشيوخ . ومن عطفه على الحيوان أن هرة

نامت على طرف قميصه وأذنت الصلاة فلم يشأ أن يزعمها وقص  
طرف الثوب ثم عاد بعد أن تركته المرة فخاطه . . ووجد مرة  
كليباً أجرب يطارده الصبية حتى أخرجه إلى مكان بعيد فخرج  
وراءه وضرب عليه مظلة وكان يحمل إليه في كل يوم الطعام  
والشراب ويحت عنه الجرب ويطلبه بالقار حتى رىء ونبت  
شعره فحمل إليه ماء ساخناً فغسله وأعاده إلى القرية . وكذلك  
أقام الرفاعى من ثمانمائة عام دليلاً على أثر الدين فى تهذيب  
النفوس وإصلاحها وطبعها على الخير واتعارها الشفقة على  
الإنسان والرفق بالحيوان فليس الرفق بالحيوان — كما بدعى  
المدعون — سنة أشرقت شمسها من الغرب ولم يصل سماعها  
إلى الشرق إلا فى القرن العشرين .

وأهل الذى أبس على الرفاعيين فى مصر أمرهم وجود الشيخ  
على ابن شباك الذى شهر بالرفاعى فيها وهو من أتباع سيدى  
أحمد فحسبوه هو وهم على هذا الزعم يؤمون ضريحه ويحتفلون  
بذكرى مولده فيخرجون بطبولهم الدقاقة وبنودهم الخفاقة  
ويشاركهم فى مهرجانهم العظيم عدد غير قليل من أبناء الطوائف  
الصوفية وأصحاب الطرائق الأخرى فإذا رأيتهم وقد ملأت

الأرض جموعهم الصاخبة في أزيائهم المتضاربة ونجمت من رؤوسهم عمام البيومية الصفراء والأحدية الحمراء والنقشبندية الخضراء والرفاعية السوداء حسبهم نباتاً مختلفاً ألوانه متباينة أزهاره ولا تكاد تستقيم في الأسماع أناشيدهم الدينية وأغانهم الصوفية بين جلبة التهليل والتكبير وأنغام الزمر والصفير وبين قرع الطبول ونقر الدفوف وقد تعالت في الجو إلى جانب هذه الأصوات الدأوية سحب من مثار النقع ودخان البخور وكأن الشرر المتطاير من المشاعل ومن نيران المواعظ نجوم متساقطة أو شهب متهاوية وإذا ما انتهت هذه الجموع إلى ساحة الحفل انتظمت حلقات يتوسطها الرفاعيون يعرضون مغامراتهم فيتطوق بعضهم أطواقاً من الحيات الضخمة يداعبونها ويروضونها على أنواع من الرقص على نغمات المزمار أو تقاسيم الناي أو يخطون لها في الأرض دوائر يحبسونها فيها فتزحف في محيطها كيف شاءت دون أن تجرؤ على تخطي خطوطها وقد يعملون أسنانهم في حشومها عضاً ونهشاً وما تحاول أن تدفع عن نفسها أذى ولا شراً وبعمد غيرهم إلى المناجل المصهورة يلمقونها وإلى الجمار الملتببة يأكلونها وإلى قطع الزجاج يعضونها وإلى المسامير يتلعنوها

بل لقد يدخل أحدهم السيف الطويل في فيه ويغيبه في جوفه  
وما يمسهم من كل ذلك سوء أو يصيبهم أذى .

وفي بعض الحقائق نرى حواة قد وضعوا أوعية مملأى بالماء  
واطلقوا حولها الثعابين فتهرع إليها حتى إذا وردت الماء واستقت  
تقدم الحواة فشربوا منه ثم راحوا يسقون النظارة زاعمين أن كل  
من شرب منه شره كانت أمانته من كل زاحفة .

وفي حلقات أخرى تراهم يطلقون أسراباً من تلك الحيات  
ويندونها فتأثى إليهم طائفة أو يأمرونها بالوقوف وهي زاحفة وهم  
يرددون صيغاً غريبة من العزائم . فتجمد في مكانها أو يلقون  
حبالهم وعصيمهم فيسحروا أعين الناس فيخالوها حيات تسعى  
وهم في كل ذلك ينادون ( يا رفاعى مددك ) .

ويزعم هؤلاء الرفاعيون أن كل ما يأتونه من تلك العجائب  
مصدره البركة المستمدة من شيخهم الأكبر . ولو صح ذلك لما  
ذهب بين آن وآن عدد منهم ضحايا لدغ الأفاعى . ولكن لم  
من تلك البركة مناعة تقيهم وهم أقرب الناس من شيخهم . وأغلب  
الظن أنهم دروا على المهارة وخفة الحركة أو أوتوا شيئاً من قوة



الايحاء وإنما ظهروا بها للناس في مظهر الدين لأن ذلك أروج  
ابضاعتهم وأزكى لهم عند العامة والبسطاء .

ولقد تركنا الشيخ أبا مكارم في طريقه إلى المهرجان وفي  
جعبته « ووطو » وكان من سوء حفظه أنه بعد أن وصل إلى  
الساحة الكبرى وكانت قريبة من النيل وتوسط إحدى الحفقت  
يعرض الأعمية اخرج « ووطو » من قرايه وعرضه في بعض  
المنظر ثم لمه حول عنقه وعضه عضه ألمه « ووطو » فجزاه عليه  
عضة مثلها فخر الشيخ المسكين مغشياً عليه غشية لم يفق منها ولم  
يدفع عنه لموت رقى لراقين ولا تعويذ لمعوذين ووجم الناس  
هذه المذبة المؤنة وانسل « ووطو » من تحت أرجلهم فلما ثبوا  
إلى نفوسهم راحوا يحشون عن ذلك نعتاً لايم وجروا في  
أثره واكسبه لم يدركوه إلا وقد شرف انهر فتفزع فيه فجعلوا  
يرجمونه بالخصى فقص في ذلك حتى وصل إلى القمع .

زل « ووطو » إلى قعر النيل فإذا هو في بيثة لا تشاكلها  
بيوت ودولة تتصل بهم دولات ووجد من حيوان ذلك وسمكه  
صنفاً لا يشهد ضريباً وثني نمسه بين حياضها غريباً فذهب  
في نمسه ديب من الفرع وادلته الأسماء جرعاً بجزع فن شئها

أن تفرغ لرؤية كل غريب وانكش « وطو » يفكر فيما وقع فيه  
 قبصر محوت أملس يقال له « الرعاد » في لونه صفرة قائمة يشوبها  
 بياض وتوشها بقع يظلب عليها السواد إذا دنت منه الأسماك  
 ضربها بذنبه فلفظت كل ما في جوفها فيسرع إليه فيلتهمه ورأى  
 أحرصها على البعد عنه ( البلطيات ) لأنها تحفظ نفسها في تجاوير  
 فيها فتبتعد خشية أن يصيبها ما يصيب غيرها ويكون متافئة  
 لصغارها . ورأى « بوطو » فيما رأى الجريس وهو نوع من  
 الأسماك يشبه الثعابين بعض الشبه حتى اشتهر بين الناس باسم  
 ثعبان السمك وظلموه فاعتدوا بأن في رأسه غدة سامة  
 تحية الأرض فعدوا إلى قطع رأسه قبل أكله وهو من  
 كل ذلك براء . . وظن « بوطو » أنه من فصيلته لولا  
 أن رأى فيه صبراً على المكث تحت الماء بفضل خياشيمه التي  
 يتنفس منها .

وراحت « القراميط » من حوله بلونها الرمادي الداكن  
 تلعب وترقص ويناجي الذكور منها أنثاه فكانها في عيد من  
 الأعياد . ثم يشتبكان في تزواج قد يطول ، وبعد وقت غير

قصير تضع الأنثى بيضها المخصب في الطين خوفاً عليه من أن  
يتهمه عدوها من الأسماك الأخرى . كما راحت ذكر سمك  
( البنى ) . وأثائه تلقى حيواناتها المنوية وبويضاتها في الماء  
وتتركها منشئة القدر .

وضاق « بوطو » بهذه البيئة وأحس الصيق في أنفاسه نفذ  
الهواء من رئته فظفا على سطح الماء فرأى سمك « البطحيش »  
الدقيق الذي يلد صغاره يتهم يرقات الناموس إتهاماً . ولح  
السمك « الأبيض » يحوم فوق سطح الماء في تديل وتراقص  
معجباً بالألوان البديعة التي وشت الطبيعة بها ريشه الجميد  
فكأنه رسمت عليه زهور القول . ويهوى على سطح الماء فينتطها  
سمك « البطحيش » الصغير . . . وقد اتخذ السمك عششه من  
الجروف الموجودة على لشاطئ . فيضع فيها بيصه . ولا يحزنه أن  
يداهم عشه ثعبان « العارغة »<sup>(١)</sup> وهو انتعبان اوحيد في مصر  
آكل البيض . ولون هذا الثعبان العريد زيتوني أو رمدي  
وعليه صفوف من بقع غراء معتمة وقد تالشي كل هذه البقع .

أما البطن فأصفر وله نقط غبراء وهذا التعبان وديم لا يعرض  
لأن أسنانه غير أثرية وغير مذبذبة وهو عظيم الشبه بالغريرية السامة  
في لونها وفي الصوت الذي تحدثه الحراشيف عند احتكاكها  
ولذلك يصعب على الكثير التمييز بينهما:

وسبح « بوطو » إلى الصفة الأخرى من الهر فوقه في صحراء  
مجدبة سادها السكون والوحشة فلا يسمع فيها إلا همس النسيم  
وكان القمر يرسل ضياءه على رقعة الرمال التي سردها الرياح  
فبدت كلبجة الماء . وخرجت القرع والمقرنات من الرمال فأبرقت  
بانعكاس ضوء القمر على جلودها ، ودبت الحياة في ذلك القفر  
نوات ، وجدت كل دابة في طلب رزقها فنلاق الغرماء . تقابل  
الأعداء . واشتبكت ورتة ومقرنة نعضت عليها بأسنانها وجعلت  
تضرب بها الأرض وراحت تدفع عن نفسها فالتفت حول عنقها  
وجدت في خنقها ثم انجأت المعركة عن الخصمين معاً صريعين .  
وانفرد أرقم<sup>(١)</sup> أحمر بحجة غريبة فأوسعته وخرأ بأبيابها وجدَّ  
هو في مداورتها حتى تمكن من القبض على عنقه . وما زال بها

حتى قضت نحبها فلما سكنت حركتها التهمها . . . وظفر أبو منتن  
بشعبان قتلته وهم بأكله فرأى ( فنكاً<sup>(١)</sup> ) يدايف إليه فاستلقى  
على الأرض وتماوت وبعث بريح شديدة النتن انتشرت في  
الهواء فلوئثته وتأذى به الفئك فأتقلب على عقبه وقد  
خاب أمله . . .

برم « بوطو » بهذه البيثة الجديدة وأوجس في نفسه خيفة  
فأجمع أمره على أن يعود أدراجه ورأى على ثره سريراً من  
الأراقم تطارده فجده في الهرب ولم ينج منه إلا التجاؤء إلى الماء  
وبينا هو ساج في النيل إذ صادف فنكاً مشحوناً فتصق به  
وكن بين ساعه وصادف في جوفه بعض الجرذان فتنع به . . .  
وأقل القمر ففقد رقاعة باب السمراء إلى الليلة الثانية . . .

## عشش الترجان

ولما أشرق القمر في الليلة السادسة اتخذ رفاعة مكانه من القوم ليصل ما انقطع من حديثه وقال : —

التي الفلك المشحون مراسيه على شط النيل في ( بولاق ) على كثب من « عشش الترجان » وشرع النوتية يفرغون حمولة فلكهم إلى أن جاء دور ( بلاليس ) العسل فتراجع الحاملون وقد امتنعت وجوههم واضطربت قلوبهم وجعل كل منهم يجري من مكان إلى مكان منقبا عن عصا صائحاً « الثعبان . الثعبان » ولكن الثعبان كان أحرص على حياته من أن ينتظر الموت ما كناً فتركهم في مرجهم وانسل إلى البر ونزل في أرض قوم لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً . تطلع الشمس فيهم على رؤوس مشعثة وعيون غائرة صفرها الجوع ووجوه شاحبة وأجسام مهزولة هدها السقم ونعوس خائرة أنهكها التخدير وعقول

## • وكتب الرقابة •

فائزة صرفها الجهل والضعف عن السعى للعيش إلا من طرق  
الإحرام وسلكوا في تدمير إجرامهم كل سبيل وفتقوا فيه كل حيلة  
حتى استنصروا القردة وعلموها « النشل » وروضوا الحيت ودرروا  
الجداء والكلاب والجرذان على الأعمى يبتزون بها أموال  
الناس يصرفون نهرهم في التسول والسلب فإذا أرخى الليل  
ستوره وشر الويتة خفت هذه الأفاعى البشرية تعيث في الأرض  
فسدا فترام عصيات يتناحرون على اقتسام الغنائم ويتبرون في  
اعداد قراطيس الخدر للاتجار أو يتشاحنون على اقتدص فرائس  
الأعراض وقد يجرم - يشجر بينهم - إلى أعمال الخناجر والمراوات  
فتبرأ أعضاء وتراق دماء وقد لا تقع عليهم عيون الولاة ولا أيدي  
القضاء .

وإذا ولجت وكرهم أو عشمهم فوجئت بما يؤذى المعطس  
من تنن الريح ويضني الرثت من فساد الهواء ويقذى العيون  
من قدروها نك ما يقع عليه بصرك من أجسام عجاف كأعشب  
الصحراء ملقة على فرش من المليف والبردى أو على حشيش من  
الهشيم تلفها أودية بالية لا يبين لونها مما علق بها من أوساخ وأقذار

ومن عجيب أمر هذه الدور ان أرخص سلمها الأرواح والأعراض  
وأغلى نزلاتها الأوبئة والأمراض .

ولو اطلعت على ضمير ساكنيها وكشفوا لك عن دخيلة أنفسهم  
لراعتك ما انطلعت عليه جوارحهم من ثورة على القدر الذي شاء لهم  
حياة البهم وسخط على المجتمع الذي لفظهم فأشقام ليحنو على  
الأثرياء الناعمين بثرواتهم لاهين عن شقاوة وبؤس الفقراء ممن  
حولهم يضمنون عليهم ، وهم الله من فضل فينتشلوهم من حمأة  
الجهل والفقر التي تردوا فيها .. ولو فعلوا لأتقذوا هؤلاء التعساء  
الذين قضت عليهم تنشئتهم وتربيتهم وجهلهم بأن يكونوا أعداء  
الفضيلة وخلصوا المجتمع من شرهم وأذاهم وانتقامهم من الجماعة  
التي تجاهلتهم .

ولئن كان هذا الحى أو هذه المباءة وصمة في جبين القاهرة فان  
في بعض بلاد الغرب التي سبقتنا كما يزعمون بأشواط في طريق  
المدنية مباءات شر منها في الواقع . هناك « النورد » في برلين  
و « مونمارتر » في باريس

ونعود الآن إلى « بوطو » العرييد فقد ظل يزحف تحت  
جدران الأكواخ يفكر في الطعام ويحتال للمأوى حتى وقع على



كوخ قراد ففزعت لمرآة القروء في مرائبها وتعالى صيحاتها  
فقبل أهل البيت قرأوا تعبنا ضحنا لا عهد لهم بمثله ففرعوا إلى  
عميد حواتهم الشيخ جاد وهو رجل عات جبار على الرغم من  
ضآلة جسمه وقلة وزنه يشبه في كثير الشيخ (عمران) ففيه عيناه  
السوداوان البراقتان وفيه ظهرة هذونه وسكونه غير أنه لا يمثاله  
في طيبة قلبه وتنوع نفسه .. فعجل الشيخ جاد إلى « بوطو »  
وراح يتعرف آثاره حتى أدركه وهو يحاول الهرب فوضع عصاه  
الصغيرة على عنقه وحمله في قرابة ايضه إلى مجموعته من الزواحف  
التي غصت بها داره رأتى كانت تدر عليه رزقا لا يذله أمثاله إذ  
أتاحت للشيخ جاد سعة حياته الاتصال بدور العلم وهواة البحث  
في شئون الزواحف فعرف مغالاتهم باندر منه فكان يجلس  
عنده بعض الأنواع غير المعروفة ثم يبيعهم إياها فرادى وفي  
فترات متباعدة يلتقى بهم دائماير عديدة . فيسر الشيخ من  
هذه الطريق وأثرى وصبحت له بين (العشر) بيوت عدة  
واتسع سلطه في الخى لما عرف من اتصه بالعضء وذوى النفوذ  
وأصبح مرهوب الجانب والبس فكان يرهق مستأجرى دوره  
إذا تباطؤوا في تأدية الأجور حتى ولو أدى بهم الأمر إلى السرقة .

وتوافرت للرجل زينة المار ولكن حرمه الله زينة البنين فلم تنجب له زوجاته العديداً ولداً فكان يستبدل بين عام وعام زوجاً بزواج دون أن يمن الله عليه بولد أو يبقى له من بناته على غير أبنته « عيلة » وكثر استبداله للمؤنثات حتى كانت المرأة التاسعة ولم تكن أسعد حظاً من سابقاتها فوضعت له بنتاً. وأيقنت المرأة بأن مصيرها إلى الطلاق والحرمان من ثروة زوجها فأجمعت أمرها على الخلاص من الشيخ قبل أن يتخلص هو منها وكان الشيخ جاد قد جافاها وهجر مضجعها . فوسوس لها شيطانها في هزيع من الليل فحملت إلى مخدع الشيخ وهو نائم قراباً من قرب الحيات الفتاة وفتحته في المخدع وانسلت . فخرجت الحيات منه وتفرقت في الحجرة وصادت حية ذراع الشيخ ملدغته . . وكانت وحيدته « عيلة » نائمة في حجرة مجاورة فنهتها صبيحة أبيها من حلم مروع أفرعها فهروا إلى مخدعه قائمت الرؤيا قد تحققت وكان تأويلها أروع منها إذ رأت أباهما يعاني سكرات الموت وقد انعقد لسانه وبرق بصره وثلث أعضاؤه وأبصرت بالأفاعى طليقة في نواحي الحجرة

فبادرت إلى جمعها وحبسها ثم عادت إلى الشيخ المحتضر حتى صعدت روحه إلى بارئها .

وكانت عبلة فتاة عربية الخمايل مليحة الوجه هيفاء القامة هفافة الروح حلوة الحديث صافية الذهن حادة الذكاء ولكن نشأتها بين أبالسة ( العشش ) أواعتها بالخاطرة وحفزتها إلى مغامرات أخطر من مساكنة الحيات ومصاحبته فافتنت في تهريب المخدرات وبرعت فكانت لها مع رجال الأمن جولات خرجت منها فائزة . .

وبعد موت الشيخ جاد نشطت عبلة إلى القيام بعمل أيها فطلبت إليها كلية الطب أن تبيعها بعض الثعابين السامة لتجرى على سمها التجاريب فكان فيما باعته إليها « بوضو » الجوال الذي لا يكاد يستقر به المقام في معمل الكيكة حتى هرب مرة أخرى واتخذ سبيله بين الحجرات والعنبر فهاج النازلون به واستعان أولو الأمر فيها باخصائى من حدائق الحيوان فاعتقله ونقله إلى الحديقة . وأفل القمرفأقلل رفاعة باب السمر إلى الليلة التالية . . .

## يوم الضحايا

ولما أشرق القمر في الليلة السابعة اتخذ رفاعة مكانه من القوم ليصل ما انقطع من حديثه قال : —

تسلم مكتب الحديقة الثعبان «يوطو» وأخذه حارس «المنطقة الحارة» وهو اسم يطلق على المكان الذي تحفظ فيه الثعابين والسلاحف والتماسيح والورل والحرايى . ومر الحارس بالثعبان على بركة التماسيح وكان ساكنها راقداً على حافة البركة المسورة بقضبان من الحديد يصطلى الشمس وقد فقر فاه كأنه فى انتظار صاحبه «القطقاط» طائر التماسيح وصديقه الذى يلزمه دائماً فيهبط بين فكليه ويلتقط من بين أسنانه الهوام والديدان والتمساح هادىء مطمئن حريص على أن لا يطبق فيه الهائل على صديقه الصغير أو يناله بسوء وهو حارمه الوفى حتى إذا رأى عدواً أو أحس خطراً يهدد التماسيح صفق بجناحيه منذراً فينسأب التماسيح إلى الماء هرباً ..

وقديماً عبد لمصريون التمساح وكرموه وحفظوه واتخذوا منه  
 إلهاً اشروق الشمس على الرغم مما عرف عن وحشيته واقتراسه  
 الإنسان . والتمساح ذو دهاء ومكر شديد قد قيل إنه يغشى  
 الأمكنة التي تتردد عليها الفلاحات ليملأن الجرار بما يحتاجن  
 إليه من الماء فيعمد التمساح إلى طلي ذنبه بالطين اللزج من قاع  
 النيل ثم يصعد إلى الشاطئ فيتمرغ عليه ثم يعود فيمكن قريباً  
 فإذا ساق سوء الحظ إحدى الفلاحات إلى هذا المكان انزقت  
 قدمها فيتلفها التمساح فريسة سائلة  
 ومن المعروف أن الورلة الشامية التي كادت تنقرض من مصر  
 تتغذى ببيض التماسيح وصغارها .

ويقال إن النمس ألد أعداء التمساح وأن أحب شيء إليه هو  
 هذه الزواحف العظيمة . ومن الخرافات الشائعة أن لمس كثيراً  
 ما يباغت التمساح وهو فاغر فاه فيغافله ويدخل فيه وينفذ إلى  
 أحشائه يقطعها ويلتهمها ثم يمزق جلد التمساح ويخرج من جوفه .  
 ومر «نوطو» فيا مر مع الحارس محظائر السلاحف وقد نادت  
 بما تحمل على ظهورها من عاب عظيمة فراحت تزحف بها  
 في تناقل وكسل وقد برمت وضقت بحملها الذي قدر عليها أن

تحمله عمراً طويلاً قد يزيد على الثلاثمائة عام تقضيها في حياة هادئة لا تتغير ولا تتبدل . وإلى جانب هذه الحظائر أقيمت بيوت صغيرة تضم بين جدرانها الضباب والورل والأبراص والسحالي . وعلى باب « بيت الثعابين » وضع صندوق زجاجي ثبتت به أغصان شجر جافة لصقت بإحداها زاحفة يعرفها الناس باسم « الحرباء » وفي طباع هذه الحرباء من الطريف والغريب ما يسترعى النظر ويدعو إلى التسلية . فالناظر إليها يرى عينين لا علاقة لإحداهما بالأخرى تدوران في محجريهما في كل الاتجاهات فتتعقب الفريسة بعين وتنطلق إلى هدف آخر بالثانية كأن تستطلع بها الطريق أو تراقب العدو . وتظل ساكنة على هذه الحال حتى تستقر عينها على حشرة من الحشرات التي تنفذي عليها كذبابة أو غيرها وعندئذ وبأسرع من لمح البصر يندفع لسانها الطويل ممتداً إلى موضع الحشرة ليعود بها إلى فمها فتبتلعها والمعروف عن الحرباء أنها تتلون تبعاً للون البيئة التي توجد فيها فتكون خضراء مثلاً بين الشجر أو صفراء في الرمال وهكذا حتى راحت مثلاً للتلون . والواقع أن هذا الرأي فيه من الصواب والخطأ جميعاً . حقيقة أن الحرباء كثيرة التلون ولكن نلونها

هذا لا يرجع إلى البيئة ولكن إلى عوامل طبيعية ومؤثرات أخرى مختلطة كاضواء الحرارة والقزح والاستفزاز والجوع والعطش وغير ذلك مما يقع تحت تأثير الأعصاب على المادة الملونة الموجودة بخلايا الجلد .

دخل الحارس ببوطو إلى « بيت الثعابين » حيث وضعه مع أضراسه من النواشر في صندوق زجاجى كبير و « بيت الثعابين » فى هذه الحديقة التاريخية خلىق بالمشاهدة والاهتمام . . فإذا ولج زائر أخذته الروعة بتلك الثعابين الحبيسة وقد تتملكه الرهبة إذا تذكر أنه أمام تلك الزاحفة العريقة التى كانت فى يوم ما معبودة القدماء تقام لها الهياكل وتبنى من أجلها المعابد . . فها هو ذا الناشر « أوريس » الثعبان المقدس كما كان يسميه قدماء المصريين . . وها هى ذى « المقرنة » معبودة « طيبة » كما ذكر « هيرودوت » ثم ها هى ذى « الأصل » إلهة النصر عند زوج أفريقية . . .

اكتظ المكان بشتى أنواع الثعابين وقد تهيأت لكل نوع البيئة التى كان يعيش فيها حين كان حراً طليقاً . . ويرى الزائر الثعابين هادئة ساكنة فى أماكنها قد اتخذت وضعاً معيناً تظل

عليه الساعات الطوال لا تغيره . . . يرى الأرقم الأحمر رابضاً شاخصاً . . . و « الأزروود<sup>(١)</sup> » والأرقم البيتى متسلقين غصناً .. ويلتح « المقرنة » دفيئة في الرمال لا يبدو منها غير رأسها المنطرح و « الغربية » هادئة فوق حجر تصطبلى الشمس . . . ويبصر الناشر كامناً ساكناً فإذا أحس حركة بجانبه هاج وثار . وينظر إلى « حنش<sup>(٢)</sup> الماء » فيجده دائماً جاداً في قطع جدولته ذهاباً وأوبة . بينما رقت « الأصلة » في قاع بركتها . . . وقد يفادر الزائر « بيت الثعابين » دون أن يظفر برؤية البخاخ أو البرجيل .

وصادف أن كان حضور « يوطو » إلى « بيت الثعابين » في يوم الثلاثاء أو يوم الضحايا وهو اليوم المخصص من كل أسبوع لتقديم الطعام لها في مساء بعد انتهاء الزيارة .

فلما انصرف الزائرون وأقفر المكان هرع الحراس إلى إحدى الحجور في هذا البيت حيث سجنّت الضحايا من الفيران والسحالي والحمام والماعز وأخذوا يوزعونها على الثعابين . . . حسبما يستسيغه كل منها . . . فهناك في صدر المكان حيث محبس « الأصلة »



الهائلة يروح الحارس يدفع إليها بأفراد الحمام فيعرف حولها في لهو وعبث وغباء . . . فإذا ما شمعت الأصلة برفيف أجنحتها تحركت بدافع الجوع وهاقت في ضحيتها البريئة بعينين شاخصتين وفتحت فاهها وما يزال الحمام في لهو وعبثه يقرب ويتعد ويعلو ويهبط حتى تقع حمامة منه على قم الأصلة فتطبقه عليها في هدوء وتغيبها في جوفها ثم تعود فتفتح فاهها لتستقبل ضحية أخرى . . وهكذا تتوالى الضحايا واحدة بعد أخرى حتى يستقر في جوفها حوالى أربعة عشر زوجاً من الحمام . . .

وفي محبس ملاصق تقيم الأصلة الهندية فيقدم لها حرسها جدياً صغيراً فتحقق فيه ملياً فيجمد المسكين في مكانه من شدة الرعب والهلع . . . ولكن بدلاً من أن تهتم بهصر عوده وخفته توطئة لبلعه تهمله ولا تقربه . . . لا رحمة به منها وشفقة عليه وإنما زهداً في الطعام إذ كانت على وشك الانسلاخ . . . وأتخذ الجدى مؤقتاً إلى أن يمحن حينه في أسبوع آت . . .

وفي أحد أركان البيت العتيق أنشبت « المقرنة » أنيابها في فُر صغير — فما لبث أن مات بسمها فابتلعت من رأسه إلى أن استقر في معدتها فأخذت في هضمه حتى موعد الوجبة التالية . . .

وهكذا فعلت في ركن مقابل « الحية القراء » بسحاليها . . .  
 وثمة ثعبان آخر هو « الفارغة » يتغذى بالبيض يقدمه له  
 حارسه فيلتهمه دون أن تكسره أسنانه الأثرية . . فما إن تستقر  
 البيضة في مربشه حتى يضيق عليها من أسفل وتتقلص العضلات  
 فتعرض البيضة للكسر بالاصطدام بما يبرز من فقرات الظهر  
 من تنوء وتسيل محتويات البيضة في المعدة . أما القشر فيلفظه  
 لعدم حاجته إليه . .

ثم ألقى الحارس ببعض الفيراف في بيت النواشر النهمة  
 فتجمعت عليها تعمل فيها أنيابها . . .

أما نوطو فكان لخدانة عهده بالأسر مهتاجاً ثائراً يسعى بين  
 جنبات المجلس عليه يجد منفذاً . ولم يلق بالآ إلى الجرزان التي  
 كانت تهزول حوله قلقة مذعورة . . .

وأفل القمر فأقفل رفاهه باب السمر إلى الليلة التالية .

## نايالا المجنونة

ولما أشرق الفجر في الليلة الثامنة أخذ رفاهه مكانه من القوم ليصل ما انقطع من حديثه قال :

ظل بوطو بضعة أسابيع في معقله الزجاجي في حدائق الحيوان بالجيزة إلى أن كان يوم مرت فيه بمصر بعثة علمية من امريكا الجنوبية وكان من ههما أن تجمع ضروبا من الثعابين من مختلف الأقطار تنقلها إلى معاهد البرازيل وقد حملت فيها حملته إلى بلادها مما أهدى اليها من مصر بوطو المعروف .

وهكذا هبط بوطو أرض البرازيل ونزل ضيفا عزيزاً على (البوتانتان)<sup>(١)</sup> أو حزر الثعابين الشهيرة في ضواحي (سانتاوولو) وهي حدائق غناء فسيحة الأرجاء أنشأها العالم انكبير ( فيتل برازيل ) سنة ١٨٩٩ فأسدى بذلك إلى بلاده يداً وطنية خليقة

بأجزل استكرو وُجمل التند. وفي هذه الحدائق الواسعة تجمع أنواع  
التعابين من سقى البقع وقد أعدت لها جزر حيطات بخندق من  
نساء رُعد في كل جزيرة قباء له أربع كوى ويفرد لكل نوع  
من التعابين جزيرة تعيش طليقة في أرضها وتتقى هجير الصيف  
ومطر الشتاء تحت قبورها .

وكذلك أعدت في الحدائق حظائر للخيل التي تحقق بالاسم  
لعمل المصل الواقى وهذا المصل يوزع بين جميع الأهالى بالجواز  
فقلت نسبة الوفيات بسم الأفاعى منذ ان أنشئت هذه الحدائق  
ولجمع الاسم من الأفاعى يتمسكها الحراس بعصى خاصة ثم تدلك  
العدد السمية فتزرز سمها ويجمع في أوعية خاصة وهذه العملية  
شاقة بمجهد لأفاعى وتكرارها يصبى عابها — وقد أجريت ابوطو  
أكثر من مرة فقصت عليه وطريقت صحيفة مليئة بالمغامرات حافلة  
بأحداث ووضعت في الكحول عمتحف الحديثة ليؤدى للعلم خدمة  
بعد موته .

سكت رفاهه هنية ثم عاود حديثه قال وانعد مرة أخرى إلى  
الكلام عن ابرازيل التي زارها صديق الأستاذ موسى والتي  
كثيراً ما نحدث عنها أمام تلاميذه في شىء من الإسهاب . فهذه

البلاد أحق بلاد العالم بأن تسمى وكر الثعابين فهذه الثعابين  
 المرجانية الجميلة وهي سامة وغذاؤها الثعابين وقد مرّن أهل تلك  
 البقاع على صيدها فهم يحملونها ويبيعونها للسباح ويخفون عنهم  
 ما فيها من خطر فيدعون أنها ليست سامة وإما السم في ثعابين  
 في جوفها تعض نيابة عنها وفي هذه البلاد سيد الأحرار وهو أطول  
 الثعابين وأضخمها إذ يبلغ طوله أربعة أمتار وهناك غير هذه ذوات  
 الأجراس<sup>(١)</sup> وهي أشرس الثعابين وأخبثها وهي أفاعٍ تكونت  
 على أذنانها حلقات قرنية مجوفة كالأجراس متداخلة بعضها في  
 بعض يحدث احتكاكها رنيناً خاصاً ويرجع بعض العلماء أن صوتها  
 علاقة بالتزاوج ويمتد بعض الهنود الحمر أن هذا الصوت نذير  
 للإنسان فلولاه ولولا ما طبعت عليه من بطء الحركة لأربت  
 ضحاياها وما أكثرها على الملايين. وأنياب هذه الأفاعي ناعمة الصلابة  
 مفرطة الطول فلا تجدى فيها كثافة الأردنية بل لا تحول دونها  
 صفاة الجلود ولدغاتها قتل ذريعة فإن جزءاً من مليون جزء من  
 الجرام من سم هذه الأفاعي يقضى على الحامة في ثانية واحدة

على حين أنه لا يقصى عليها في مثل هذه المادة أقل من نصف  
 مليون من سم سيد الأحرار التعبد البرازيلي الشهير .  
 وتتخذ هذه الثعابين وكورها عمد شواطئ البحر وفي الأحرار  
 وفي السهول وفي المضارب وحول المنازل وتجمع بها الغابات الكثيفة  
 التي قلما نعوذ قدم إنسان لأن الأشجار فيها ملتمة مترصة  
 كأبنين سدت نوافذه وكثيراً ما تفقد الحيوانات ذوات الفراء  
 أوبارها .

وهذه الغابات ساحرة حرب عوان لا تهدأ رحاها بين جميع  
 الكائنات الحية في طلب الضوء تتناحر الأشجار فيتسامى كل  
 جرع بأغصانه إلى عنان السماء كما تعلو التيجان الرؤس لنظير  
 من أشعة الشمس بأوفر نصيب . وتظهر نباتات أخرى متسلقة  
 تلك الجذوع وترتفع بدورها فوق هذه التيجان لتواجه الضوء  
 وترسل غيرها جذورها الهوائية من عل فتتدلى في ثنيات الغاب  
 وعلى هذه الأفنان وفي وسط هذا النضال تعيش البيغاء الساحرة  
 المنظر العتنة الريش والقردة السريعة الحركات وأضدادها  
 كالكل أتمل والحيوان الكسلان وهناك مقبل الزهرة العصفور  
 الجليل الذي لا تكاد العين تفرق بينه وبين الزهرة حين تقع عليها

وسط هذه البيئة تعيش الثعابين وخاصة ذو الجرس الخفيف يبعث  
 الرعب في قلوبها وينشر القزع في نفوسها ويسلط شره عليه  
 وعلى كل من دلف إليها فلا يطمئن إلى جواره صيد ولا يكا  
 ينجو منه صائد وهناك الخطابون الذين يعملون في قطع أشجار  
 الغاب لا يفتأون يعملون واصلين ليلهم بهارم ليهدوا الأجزاء  
 التي يطهرونها من السجرو ويهيئوها للزراعة حتى إذا ما نجحت  
 جهودهم في اخلاء بعض الساحات الصغيرة وظنوا أنهم قادرون  
 عليها دهمهم سيل هذه الأفاعى وزحمت عليهم كثائها تنذرهم  
 وتنزل بهم بطشها وتتركم صرعى فلا تعود جذور النباتات تجد  
 ما يقف في طريق نموها بعد أن سكنت المعاول فتتشط وتتصاعف  
 مجهودها وتضم إلى مملكة الغد بعد أن انتزعت منها وكأز  
 الطبيعة هناك أشد من الإنسان بأساً وأطول ناعاً وعلى جنبات  
 هذا الغاب قامت قرى يعمرها قبائل من المهاجرين البيض والهنود  
 الحمر رأوا وسمعوا كيف عصمت الأفاعى بأمتهم فمقتوا حين  
 تدفع عنهم غوائلها وعمدوا إلى الخنازير فاقتنوها وأكثروا من  
 تربيتها فخلصتهم من هذا العدو ولولا هذه الخنازير التي لا تنار  
 منها الأفاعى نيلاً لما استقر لأهل القرى قرار ونحلت منهم أرضهم

وذيأرهم ولما سكنها غير الأفاعى من بعدهم وفي جوار الغاب كوخ صغير يروى الرواة عن صاحبتة (المجنونة) قصة تبكى العيون فقد نشأت هذه المسكينة (نايالا) في ذلك الكوخ طفلة فاتنة كأنزهرة نضارة وجمالاً ساذجة كالقطر طهارة وصفاء ونشأ إلى جانبها ابن عمها (تيمياو) ابن زعيم القبيلة الذى بانث فيه مخايل الكرم والشجاعة فنشأ طفلين يمرحان ويلعبان وترعرعا شابين يسحران ويفتنان (نايالا) بدواعثها وجمالها « وتيمياو » ببسالته وإقدامه ونشأت معهما وترعرعت علاقة حب انتهت بزواج وتمت لتيمياو زعامة القبيلة بعد موت أبيه وكان يوم خرج فيه الصيادون إلى الغاب وخرج معهم زعيمهم وما يؤذ دخلوا الغاب وأوغلوا فيه حتى سنح له قطيع من الحيوان فراح يطارده وأبعده الطراد عن رفاقه فضل الطريق وشاء له سوء الطالع أن تقع قدمه على واحد من ذوات الأجراس فعضته في ساقه وما إن شعر بها حتى عدا عليها فقتلها وأسرع إلى موضع العضة من ساقه فشقه وجعل يعصر السم منه ثم اتخذ له ضمادة من قميصه ولكن السم كان أسرع من حيلته فسرى في دمه وخارت قواه عرف ذلك حين تحامل على نفسه وهم بالنهوض فخانه عزمه وسقط مغشياً



عليه وكان الصيادون يجدون في ثمره للبحث عنه فعثروا عليه قبل ان يلفظ انفاسه الأخيرة فأنخلعت قلوبهم لما أصاب زعيمهم وهموا بنقله ولكن الدم جعل ينزف من فيه ومن أنفه فدلهم ذلك على أنه في النزاع وأوماً إليهم في هذه اللحظة الأخيرة أن ادفنوني في ظل هذا الغاب واستحلفهم في نعمة خافتة ألا يعطوا نايالا بمكانه وأن يكتموا عنها أمر وفاته وليكن مبلغ علمهم به حين تسألهم عنه أنه كان يعارد صيداً في الغاب وأنهم بحثوا عنه فلم يهتدوا إليه وحان الحين الرهيب وفرق الزعيم الحية فبكوه جهدهم ودفنوه حيث أمرهم وعادوا دراجهم واقبيتهم (نايالا) فلم يزيدها على ما أوصاهم به وتطيرت بهذا النبأ فضل عنها صواها واختلط عقابها وفرت إلى كوخها كالظبية النافرة وظلت فيه حبيسة لا تفرح إلا مرة في كل مساء إذا عاد الرعاة وأن أوان عودة الصيادين فتنظروهم على رأس الطريق تتوسم وجوههم وتسمع أصواتهم لعلها تظفر بتمياو المحبوب بينهم حتى إذا أسفرت لها الحقيقة ولم يظهر لها تمياو وغلبها اليأس انقلبت إلى كوخها وكأنها تردد فيما بينها وبين نفسها .

عد إلى يا تمياو فقد نفذ الصبر

عد إلى ولا تبطئ فاني أنتظر  
 وإلى أن يدب بياض الشيب في شعري وقد دب  
 ويسلبه سواد لونه الفاحم وقد سلب  
 وإلى أن تكرر السنوات واحدة إثر أخرى وتمر  
 وإلى أن يذوى عودى وتغنى زهرة العمر  
 سأظل أنتظرك يا حبيبي . سأظل أنتظرك يا من أحبته  
 من أعماق قلبي

سأظل أنتظر وأنتظر وأنتظر ؟ ؟

وسكت رفاعه وخيم على القوم صمت حزين حتى خرجت  
 بهم وردة عن صمتهم سائلة : هلا أخبرتنا يارفاعه بما آل إليه حال  
 صديقك موسى صاحب الفضل في هذا الحديث الشائق عن  
 الثعابين ؟ .. فأطرق رفاعه هنيهة ثم رفع رأسه مثقلا وهو يقول :  
 لقد أشفقت على نفسي وعليكم من ذكر بما انتهى إليه أمر صديق  
 العالم . ولكن ما دمت قد ذكرتني بما نعمدت إغفاله فعلى رسلك  
 ياوردة . . وإليكم نبؤه :

ظل الدكتور موسى يقوم بعمله الحكومى الذى أسند إليه خير  
 قيام ، لا تفتر همته ولا تنهن أمانته لعمله الذى أحبه من قلبه

وشغف به شغفاً عظيماً ، فوهب له كل حياته حتى نسي ما عنده من أمور الدنيا . . . وكان هو راضياً عن نفسه ، راضياً عن عمله فرضى عنه رؤساؤه وأولوه ما شاء من عبارات التقدير ، وأغدقوا عليه ما شاء من عبارات الثناء والمدح . . وكان هذا كل نصيبه وكل جزائه . . ولم يفكر هو في غير هذا النصيب ، وفي خير من هذا الجزاء . . .

واتصل بعلماء الشرق والغرب ، واتصلوا بهم به ، فقدروا علمه وشادوا بفضل ، فذاع اسمه في الشرق ، ونبه ذكره في الغرب ولكن قل من سمع به في بلده ؟ . .

وانقضت سنوات وسنوات ، وهو في نفس عمله ، وفي نفس درجته . . وماذا يعنيه من ذلك ما دام هو بين ثعابينه وحياته الحبيبة إلى نفسه ؟ . . وجاءه البشير يوماً أن أبشريا موسى فقد ذكرتك حكومتك بعد نسيان ، وجاءتك الترقية تسعى بعد طول هجران . . وارتسمت علامات الاستفهام على شفتي موسى وعلى وجهه جميعاً : كيف . . ولم ؟ ؟ فأنبأوه أن الحكومة قد أدركت أخيراً أن بعضاً من موظفيها يبقون أمداً طويلاً في درجاتهم لا تذكركم بترقية إلى درجة أعلا ، فأشفقت على هؤلاء المهملين

فست لم قانوناً ينصفهم بعد غبن سمته « قانون المنسيين » و.  
 كان من بين هؤلاء المنسيين المهملين فسيفيد من هذا القانون فيرف  
 كيف . . ؟ أ كان إذن منسياً من حكومته رغم ما بذأ  
 من جهد في فنه وعلمه ؟ وعلام إذن كان ثناء رؤسائه وتقدير  
 زملائه ؟ .. أتنساء حكومته ويهمله بلده وهو الذي عرف الأجانب  
 قدره فذكروه واعترفوا بفضله . . ؟ لا . . لا يمكن أن يكون  
 هذا حقاً وصدقاً . . إنه حقيقة لم يفكر في ترقية أو جزاء ماد  
 اكتفاء منه بحسن تقدير الأمة له وذكرها لشأنه . . . أما أ  
 يكون منسياً منها فهذا ما لا يفهمه ! . . ولكنه فهم أخيراً .  
 وأدرك أنه من زمرة المنسيين الذين لا يشعر بهم أولياؤ  
 ولا يذكرونهم ! .

سخط موسى على قومه . . وثار على عمله فعافته نفسه وصدف  
 عنه . . ولم العمل . . وفيه الجهد ؟ . . أليعل من ذكر بلده و  
 نسيه . . ويرفع من شأنه في العلم وقد سخر من علمه ؟ . . ولك  
 كيف يرضى هوايته وشغفه بشعائنه إذا هو ترك عمله ؟ . . وانتا  
 تفكير وذحول عميق . وأخيراً وجد الحل الذي ارتضاه واطمأن  
 إليه نفسه الخيري . . سيسعى هو إلى حياته وثعابينه الحبيبة .

هناك في الصحراء . . بين الرمال . . بعيداً عن القوم الجاحدين .

\*\*\*

وانتهى رفاة من حديثه ولما يأفل القمر فدعا عمه وردة إلى  
جولة أخيرة بين خرائب تل العارنة فسار الثلاثة تحت ضوء القمر  
الباهت حتى أتوا قصر الملك أخناتون فوقفوا أمام تلك العظمة  
البائدة وقد سادهم صمت عميق قطعه رفاة بسر ما وعيه من  
تاريخ البطل العظيم ( أخناتون ) الصالح الذي أحب السلم وكره  
الحرب . . وشجع على الفنون وجعلها ممثلة للحقائق وليست خيالات  
كاذب أو رمزاً لأراجيف باطلة فجاءت الصور والتماثيل في عصره  
غاية في البساطة وصدق الدلالة . مرسومة بحالتها الطبيعية الوقتية  
فالكلب عاو والطير محلق في الجو والثور الوحشي عائم في المستنقعات  
مما كان يتمشى مع عقيدة أخناتون في حقيقة الطبيعة وصوابها وإن  
يستثنى من ذلك التغيير أخناتون نفسه فقد رسم جلالاته على الآثار  
خالياً من الكلفة الفرعونية القديمة محافظاً على حالته الطبيعية  
الحقيقية . . وذكر رفاة ما كان عليه أخناتون من حب الأسرة  
فحث على الزواج وكان خير قدوة في ذلك لرعيته فوهب أسرته  
بعض وقته ينعم في بيته من زوجته وأولاده ويخرج وإياهم للنزهة

ويحس عليهم ويوايهم من حبه وعطفه ما لمسه في صورته . .  
وعاش روعة رهيقيه وقتاً في ذكريات ذلك الزمن السحيق  
ثم أفس القمر فأنوا إلى خيمهم . . ولما أصبحوا ارتحلوا إلى بلادهم  
ورفت وردة إلى روعة فكان كلما أشرق القمر أشرق وجه  
وردة بانسامة حلوة وهي تقول لزوجها :  
« أما حدثنا يا رفاعه عن ثعابينك . . »









